غريب في المدينة

مختارات قصصية

رشاد أبو شاور

رشاد أبو شاور

الكتاب: غريب فى المدينة (مختارات قصصية)

الكاتب: رشاد أبو شاور

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com news@apatop.com E-mail:

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

أبو شاور ، رشاد
غريب فى المدينة – رشاد أبو شاور – الجيزة – وكالة الصحافة العربية
١١١ ص ، ١٨ سم
تدمك: ٣-١٤٧-٤٤٦-٩٧٧- ٩٧٨
أ. العنوان رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٠٢٠٤

غريب في المدينة

مختارات قصصية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

العصافير

رذاذ خفيف يغسل السفوح والصخور، تتحرك الأغصان الزرقاء العاري مع هبات الرياح المتقطعة، تشف غيوم آخر الليل وترحل مسرعة إلى أمكنة نائية.

تتناهى إلى مسامع "عبد الجواد" سقسقات عصافير فرحة أفاقت من نوم عميق، ملابسه الصوفية العسكري لا تقوى على منع جسده من الارتعاش، ثقل رصاصي يشد رأسه وأجفانه.. يتخك، يفرك يديه لكن الأصابع لا تطاوعه، تماما، يجاهد بوعيه المشتت كي يدحر مد النعاس الملحاح، غبش الصباح المعتم يتبدد قليلا قليلا وتلتمع مساحات شاسعة بين الغيوم الراحلة، لذيذ أن يكون الإنسان وحيدا في لحظة استمتاع تلوح كأنها سرمدية، تهبها الطبيعة والسلاح و.. أغنيات العصافيرت بلثغتها المرحة، تحسس بيد مقرور عروق الصخر البروزية التي يكمن خلفها فانسربت إلى بده رعشة ثلجي قارسة.

فوق رأسه شجر تساقطت أوراق أغصانها.. عريها موجع. امتلأت شرايينه بأشواق إلى أماكن غير بعيدة، يتسم بينه وبينها نهر الأردن شريانا أخضر، يتلوى راحلا إلى البحر، البحر المالح الدافئ المياه أبدا. البحر في

الصباح الذابل، كأنما هو عين وسني. فوق رأسه عصافي تحك أجسادها بمناقيرها، ترتفغ مرفرفة ثم تحط على الأغصان من جديد. على المدى تستلقي بيارات البرتقال في الأغوار.

مازالت الأغصان تحمل بعض الحبات الصفراء المغسولة. آه يا حبات البرتقال كم أنت لذيذة في أريحا. "هناك"، في الاتجاه المقابل تصحوا الحياة باسلوب آخر. تناهى إلى مسامعه صوت انفجار ثم زخات رصاص رشاشات يعرفها جيدا، ووقف يجيل نظرات سريعة صوب القاعد. خاطب نفسه بيقين: لابد وأنهم قد نجحوا في الاقتحام.. اعبروا أيها الرجال، اعبروا بالنار، يعد قليل تتمزق قماشة الليل وترش الشمس أهدابها العسلية لتشتعل الحياة بالنور، فتلتمع أسطحة المنازل على مقربة من سفح جبل التجربة. يحن لأيام الدراسة في مدسة هشام بأريحا، آه كم خرجت مدرسته تلك.. بعضهم على أرضه وسقاها من قلبه لترتوي.. وبعضهم! بدأت الشمس تصعد من وراء جبل مؤاب، تمزقت عباءة الليل وانهمر دفء ناعم. اتحدت أنغام العصافي وتصاعد غناؤها كجوقة منتظمة الإنشاد.

الشمس مازالت تصعد، تصعد..

صخبت أصوات على المدى البعيد هذا لحن الافتتاح، ردت عليه أصوات نشاز يعرفها جيدا، إنها بنادقهم تعي غربي النهر، مر بجانب أذنه

اليسرى وشيش، أخفض رأسه، رصاص طائش.. ارتطم بكتفه شيء، تلفت جانبا، لوى ذراعه لتجوس القماش فوق الكتف. دم، ارتجفت أمامه بقايا العصـفور بحرص، حملت أصـابعه حبات التراب المدماة، حين انتهت نوبة الحراسة تسلق المسارب الصاعدة بين الصخور، توهجت الحياة بنور الشـمس، حلقت العصـافير مبتعدة في الفضـاء الرحب، رؤوسـها تتجه إلى الغرب، خاطب نفسـه: غدا عندما أعبر النهر مع المجموعة.. سـأدفنه هناك في الأرض، غربي النهر.

بيت أخضر ذو سقف قرمزي

عندما أصبحا خارج البوابة، نظرا إلى بعضهما بألفة، ابتسما، ابتسما، مدا ذراعيهما الصغيرين وشبكا أصابعهما، أخذا يحجلان، يهزان رأسيهما مثل دورين سعيدين. انتهيا إلى سفح جبل التجربة [١]، وهناك عند الطريق الترابي الذي يوصل إلى عين الديوك [٢]، رسما مستطيلا ثم قطعاه إلى مربعات وأحضرا حصاة مسطحة وطفقا يلعبان الحجلة.. يقفزان، يلهثان، يضحكان.

قفز حسن قفزتين ثم توقف، وأرخى ساقه إلى جوار ساقه الأخرى. وقال للبنت زينب:

– تعبت؟

قالت له.

– تعال نقعد هناك.

أشارت بأصابعها الصغيرة إلى شجرة نخيل كانا يجلسان تحتها دائما حين ينهكهما التعب.

أخـذ يحجـل على قـدميـه، ينزل واحـدة ويرفع الأخرى مع قفزات واسعة، ثم قذف بجسده في الهواء وتدحرج على العشب الأخضر الفسيح، أما هي فكانت تسير ببطء وهي تتطلع إليه وعلى ثغرها السكري ابتسامة ترتعش مثل فراشة.

تمددت إلى جواره على العشـب، كانت المياه تنسـاب في قناة صـغير تروي الحقل. غمس رأسه وبلل عنقه، ثم حفن من الماء براحتيه ورش عليها فجفلت مولولة بدلال، لكنه رش عليها الماء مرة أخرى فتبلل فسـتانها والتصق بكتيفها.

– بللتني

–هي.. هي.. هي.

– ستضربني أمي.

– إذا ضربتك سأبتاع سكينا وأتسلل إلى بيتكم في الليل وأذبحها. وضعت البنت زينب راحتيها الصغيرتين على عينيها وأخذت تبكي.

– لماذا تريد قتلها، هل تريد أن تجعلني أحيا بلا أم؟

اقترب منها، ضم رأسها إلى صدره، وأخذ يهدهدها.

– لا.. لن أقتلها.. أنا أضحك معك فقط.

– لن تشتري سكينا أليس كذلك؟.

قال وفي صوته حزن كثير:

لن أشتري سكينا.

– ولن تفكر في قتل أمي حتى ولو ضربتني؟

قال لها:

– حتى ولو ضربتك وضربتني أيضا.. وسأحبها من أجلك.

وضعا دفتر الرسم أمامهما على العشب، أخرجا من جيوبهما قطع التلاوين الشمعية، بدأت أصابعهما تضغط بالألوان الشمعية على الورق فتخرج صريرا خافتا. رسما بيتا بالأخضر والأحمر جدرانه خضراء.. أما سطحه فأحمر بلون القرمزي الذي يغطي أسقف كثير من بيوت أريحا. كتب حسن تحت البيت: هذا بيت حسن وزينب.

– هيا نعمل للبيت سورا من الأشجار.

رسما بالأخضر أشجار برتقال كثيرة، عليها برتقال كثير.

قالت:

– وهذه شجرة نخيل لأنك تحب هذه النخلة التي نجلس تحتها.

قال لها:

– وهذه عصفورة لها ريش أشقر.

وعندما انتهيا من رسم العصفورة سمعا سقسقة عذبة فقالا معا:

– يا الله.. يا الله.

وتطلعا في عيني بعضهما وضحكا.

قالت له:

– ولكن أين سيكون بيتنا عندما نعود إلى الوطن؟

قال لها:

– الِأستاذ قال لنا: سنرجع إلى ديارنا.

قالت له:

– المعلمة قالت لنا: سنعود إلى قرانا، ثم أرمتنا بالانصراف.

قال لها:

– ولكننا سنفترق ولن أراك إذا عدنا إلى هناك.

غرقت البنت في الصمت، أخذها من يدها، وضع الدفتر تحت إبطه، دس التلاوين في جيب فستانها ثم سارا متلاصقين.

قال لها:

– ولكني سأكبر وأحضر إلى بيتكم وآخذك.

قالت له:

– وأن نسيتني؟

قال لها:

- كيف أنساك؟

وكي يخرجها من صمتها وحزنها سألها.

- كيف سينزل من السماء هناك بين الصخور الحادة؟ (٣).

قالت له:

- لست أدري، ولكن لماذا بيته بين تلك الصخور.

سمعا صوتا حادا يعبر فوقهما، رأيا نارا هائلة تشب عن قصر هشام(٤)، خافا، أخذا يركضان.

قال لها:

- الحرب جاءت.. أبي حذرني من الابتعاد لأنه كان يتوقع الحرب.

قالت له بأنفاس متقطعة:

- أنا خائفة.

ضغط على يدها.

- لا تخافي أنا معك.

ضاعفا من عدوهما، كانت الأصوات الحادة تعبر فوقهما.. تدحرج رأساهما ثم استقر متجاورين.. كنا مثل برتقالتين ذابلتين... لحمهما التصق بالأشجار، تناثرت التلاوين، طارت ورقة مرسوم عليها بيت أخضر ذو سقف قرمزي.

حسن يحب زينب.

الهوامش

(١) جبل التجربة: هو جبل صـخري عظيم يطل على مدينة أريحا، وفي صـخوره حفر دير كبير، وفي ذلك الدير ينتظر رجال الدين المسيحي هبوط المسيح وعودته مرة أخرى.

(٢) عين الديوك: نبع ماء بعيد عن أريحا بضع كيلا مترات يروي حقول أريحا:

(٣) يقصد المسيح.

(٤) قصر هشام بن عبد الملك: شمالي أريحا، وهو قصر أثري.

منشور سري إلى القراء

١- حدث في إسبانيا:

جيش هائل يسد عين الشمس، يضرب في التيه والهزيمة والغبار والموت والفراق.
يسيل الدم من الأعضاء المذبوحة، الدواء قليل العتاد قليل.
ها هم.. قاتلوا وانهزموا.. وها هم يتجهون إلى فرنسا.. فرنسا المنفى. قاتلوا ببسالة، لكنهم انهزموا. ها هم يحملون على كواهلهم المهزومة بنادقهم المنكسة. راياتهم ضاعت في أراضي المعارك السابقة.

أصوات المدافع تلاحقهم، الطائرات تلاحقهم.. "العالم معكم" .. لكنهم انهزموا. في المنفى ستتلقفهم المواخير والخمارات.. وسيلاحقهم البوليس السري والعلني.

إنهم يواصلون سيرهم بلا حماس، رائحة الهزيمة "الهزيمة ليست رائحة" إنها حالة.. ليست حالة، الهزيمة لا يعرفها القادة.. الجنود يعرفونها جيدا لأنهم يدفعون الثمن، آه.. إسبانيا بعيدة.. إسبانيا حلم.. بيننا وبينها بحار.. الأحلام الممزقة كالرايات المهزومة والوعود.

جيش هائل يسد عين الشمس.. يملأ الوديان والسهول لكنه مقهور القهر؟ القهر لا يعرفه إلا الثائر الحقيقى.. آه من القهر! "لماذا لا أقرأ إلا عن الثورات المهزومة؟".

٢- دعاء:

يارب ارزقني شعرة في مفرق الحبيب.

دعاء آخر:

يارب امنحني القدرة على قول لا في الوقت الذي يجب أن أقول فيه لا، ولا تجعلني أفكر في معدتي.

حلم:

ها أنذا في روما القديمة. ربطوني بقيد ثخين، وضعوا أمام وجهي رغيفا.. يشدون الرغيف.. أزحف خلفه.. أزحف خلفه. خلقت تمردي ورائي..

ارتعت، صرخت:

– ما هذا؟

صرخ أحد العبيد.

– لماذا لم تقل لا؟

آه.. آه أعطيك دما فتعطيني ذلا، آه.. آه. بعتهم ابني برغيف.. أعطيتك دما فتعطيني ذلا وعارا، لماذا؟ أعطيتهم صـــمتي فأعطوني حتفي، آه هذه بيروت التي كنتم توعدون..

أين يافا ياسـادتي؟ أين أريحا أيها الناس؟.. كنا في منتصـف السـاحة فصرنا على الأرصفة.. ربطوا طوابير الشهداء.. وفي منتصف سوق العبيد بروما بدأ المزاد..

قارئي العزيز – كل الذين رفضــوا أن يقولوا ســابقا: لا. هم خونة الحاضر.

٣- الخروف:

ابتسـم وهو يدخن سـيجارا فاخرا بعد الغداء الدسـم، تطلع حواليه بخيلاء.. إنني خروف لكني حصلت على الراحة والطعام الفاخر.

جاءه راعية وفي يده ســكين كبيرة خاف الخروف كثيرا، ســأل وهو يتلعثم لماذا هذه السكين؟

ابتسم راعية.

– يجب أن أذبحك، أنت سمنت كثيرا ونهايتك حانت.

حاول الخروف أن يتحرك لكن إليته كانت كبيرة، وهذا ما جعله يتسم في مكانه. فتح قناة صغير في التراب. سكنت حركته نهائيا.

٤- دعاء:

ياب لا تجعلني مثل ذلك الخوف.

"مجرد دعاء.. مجرد دعاء".

٥- أسماء الفلسطيني الحسني والـ..

الثائر المقهور، المضطهد، المذل، الرافض، المقدام، المهاب، السلعة، الممسحة، المنشفة، الكروتال، الميغ، الميراج ، الغائب، الكمسيون..

العائد

الخائن

البائع

الكسى، الطاولة، الصفقة، الشيك، "الذي ينفع لكل شيء.. استخدموه مرة تستخدموه دائما".

٦

- إعلان:

محمود أبو على: شاب في العشرين من عمره، خرج من بيته مع بداية ثورة ١٩٣٦ ولم يعد للآن.. طويل أسمر، هادئ لا يحادثك إلا إذا حادثته، "احذروه فهو شرس إذا استفز، معه بندقية صواري حصل عليها بعد أن قتل جنديا إنجليزيا".

علامات فارقة: لا شيء..

أمه تقول: يابيه مين قتلك.. الذين قتلوه قادوا الثورة وأوقفوهها أم يا ترى!. أم ياترى؟؟

ملاحظة: أمه تعرف أنه عنيد وأنه لا يمكن أن يتوقف عن قتل الإنجليز، لكن.. القيادات أمرت بإيقاف القتال.

٧- أشياء على الهامش:

أحدهم يقول: كأن التاريخ يعيد نفسه.

ملاحظة مباشرة جدا:

عام ١٩٣٩ وجه الملوك والزعماء العرب بيانهم الشهير إلى عرب فلسطين، ودعوهم فيه إلى التوقف عن القتال، والثقة بالحليفة بريطانيا،

ذلك أن بريطانيا.. "لا شــك أن القراء يعرفون بقية البيان لذلك لن تثبت نصــه الحرفي".. المهم مات الفقراء والقيادات ظلت لتكتب مذكراتها عن .. إلخ.

"كأن التاريخ يعيد نفســـه" وهكذا جاءت الوســـاطات إلى عمان، وأعلن الباهي الأدغم رئيس وزراء تونس أن نزيف الدم بين الإخوة يجب أن يتوقف..

لاتبك أيها الوطن.

عام ١٩٧٠ جاء العلم الأخضر العربي، علم الوساطة.. أخضــر بلون زيتون فلسطين، أخضر بلون مائدة المقامرة..

"المقامر الشــريف ينتحر إذا خســر.. لكن ما هم .. على كل نحن نتحدث عن المقامر الشريف".

ملاحظة أخرى.. البنادق ليست أوراق لعب..

لا تبك يا وطني..

"المخانيث وأشباه الرجال

قطعوا الدرب علينا وأوصدوا باب المحال

أيها الفارس يا منتعل البرق تعال.. الخ"

من قصيدة للشاعر عبد الوهاب البياتي

يا رب اجعل عيني خرزة يلعب بها ابن الشـــهيد في الوحدات، ولا تجعلني درجة في سلم أمجادهم.

يا أيها الرب الســاكن في مخيم الوحدات، يارب الفلسـطينيين في غزة، ياب البرتقال. يا حارس مقابر الشهداء ونصبهم التذكارية..

آه يا وطني. آه يا وطني... آه يا مقابر الشهداء..

آه يا أيها الجيش الهائل، من الفقراء الذي يضرب في تيه الهوان والمنافى..

عازف الأرغول

"يـقـول محـمـد الـعـيـد: وعـامـين
حبيـب القلـب من بعـدك وعـامين
خـذوك عـداي عـن عـيـني وعـامـين
لـعـوف الـعـمـر عـفـاق الحـبـاب

قال المختار: يا جماعة وين "عبدالله العفش" ملعون هالوالدين من دون أرغولة العرس مثل المآتم.

كانت الليلة ظلماء، لكن ألسنة النار المتلاطمة تأججت تحت قدر الشاي الكبير، فجعلت الأرض تضاء بلون قان يتداخل في الظلمة فيبددها تارة، تارة تخفت، وكأنها تموت فيهب أحد الرجال ليلقم النار مزيدا من "قرامى" حطب الزيتون.

عبدالرحمن مرشد قال: نار الزيتون مباركة لها رائحة تقول طالعة من الجنة. أخذ نفسا عميقا كأنه يريد التهام عبق نار الزيتون.

كان بعض الرجال يتحركون في شتى الاتجاهات باضطراب وعجلة ليشعروا المختار بأنهم يخدمون فرح ابنه الوحيدن وكان واحدهم يرسل نظرة عابرة من طرف عينه ليرى إن كان المختار يلحظه.

ولكن رغم الحركة المفتعلة ظل بلا بهجة ، وحين جاءت الحاجة دلال أطلقت زغرودة ملعلعة ثم اتبعتها بهيهوية للمختار، فقال عبد الرحمن مرشـــد، والله الحاجة دلال أرضـــعتني صـــحيح، لكن لعنة الله على عظام والدها.. المختار ذبح القرية وهي مع ذلك تنفخ فيه ليكبر رأسه.

صـفقت المرأة بكفيها وبدأت تغني والنسـوة يتبعنها بأصـوات فاقدة الحماس.

يا مخـــتـــار يا عـــزي
يا أبــو مــنســـــف الــرزي
وإن اجـــتـــك الـــثـــوار
اوعــا قــلــيــبــك يــهــتــز

لكز عبد الرحمن مرشـــد جاره في الجلســـة: وقال يا محمود عليان سامع الحاجة دلال. فضحت المختار، قال محمود عليان:

– والله شـــايف هالعرس مثل الطين، ولن يمر على خير، الحاجة تذكر المختار بأعماله في الثوار.. تفو.. قليل ما عمل لعين الوالدين.

هب أحد الرجال ودس بضـع قرميات حطب تحت قدر الشـاي، مد راحتيه إلى ألسـنة اللهب ثم سـحبهما بسـرعة وفركهما ببعض وقال: الله الله ما أحلى النار.

آه ياليل أسود يا ظالم، آه يا قلب مليء بالغل والقهر، الليلة عرسها، أخذوها، وحياة الله سرقوها عينك عينك لكن معلش.

أخرج عبد الله العفش أرغولة، وشـرعت أنفاسـه تمر من القصـبتين الصـغيرتين إلى القصـبتين الكبيرتين المتلاصـقتين، وخفقت الأصـابع على الثقوب فاسـتيقظت أوراق الأشـجار والحمائم والأطفال والنسـوة، وكفت الصراصير عن حك أجنحتها بأبدانها وسكنت لتسمع . وقال الليل آه..

دفع عبد الله أنفاسـه ورئتيه وقلبه ودموعه وكل شـقاء العمر وهوان العمر، وقهر العمر، في قبضتي الأرغول، فقال الليل آه..

وطافت الأنغام مثل الصـبايا في عس حقيقي في شـعاب الليل، وبين الكروم وعبرت الأزقة وانسـربت من تحت أسـقف البيوت ومن شـقوق الأبواب، فتشنفت أسماع الرجال وكانت ألسنة النار أمامهم تتراقص فتبدد ظلمة الليل.

قال عبد الرحمن مرشـــد: إن عبد الله العفش نوى على شـــيء يا جماعة.. ســـامعين أرغوله.. على الطلاق من مليحة بنت الحاج محمود إن قلب الرجل أصبح مثل هذه النار التي أمامنا..

أجال المختار بصـــره في الرجال المتمددين على الفرشـــات والمتكئين على المســـاند.. فرك راحتيه: يا هلا باهل بلدنا... العرس عرســـكم.. مش لابني بس.. والله عرس الجميع.

وهمس أرغول عبـــد الله في أذنيه ألحانه فكف المختار عن الكلام وأرخى سمعه.. يا جماعة.. أنا بعثت لعبد الله العفش رســـول خاص لدعوته لفرح ابني لكنه لم يأت.. ونحن لم نفعل معه ما يســـتحق الغضـــب.. طيب وإيه ما لكم على يمين..

وتوقف المختار عن متابعة كلامه، وكأنه انتبه إلى أنه يتهم نفســـه، أو أنه سيذكر الناس بما فعل قبل بضعة أعوام.

نفخ عبدالله في أرغوله: قول أنغامك أيها الأرغول العتيق الحزن والتعب، ســـوف يطيب الموت، وأنت يا أيام الهوان روحي إلى غير رجعة، لتكن كل نغمة نصـــل ســكين في قلب المختار ولتكن في أذنيها أحلى من كلمات الأم الحنون وأطيب من العسل في فم الجائع.

عــتــابا يا الحــنــين ويــن ودوك
غـــزالي ولـــلـــنـــذل ودوك
لحبيبــك والله من ســـــابع سمــا
لو حطوا حرس وعني أبعــدوك

طلع له في سواد الليل طيف والده، وتقدم إليه، سبح مثل السحاب في صـــدر الســماء، فتح ذراعيه وعلي صـــدره الدم، مازال يســيل، طريا وغزيرا.. عبدالله . يابا المختار دعاني إلى بيته ثم بعث للإنجليز فجاؤوا قاتلهم "بالصواري" حتى خلصت الذخيرة وعندما وصلوني كنت أنزف.. لا تنس.. قتلت غيلة وغدرا، أنت كنت صـــغيرا أنت، فلم يكتف المختار بقتلي بل سرق أرضى.. أرضك.

وامتده يد والده تمســـح بحنان على رأســـه، والله كبرت يا عبدالله صرت ملء العين، بتحب وطفا؟

نفخ عبد الله في أرغولة: أخ يايابا آخ، الحب موجع مثل السكين إذ تخترق الصـدر، سـأله والده: بتحب هى، تنهد عبدالله: بنحب بعض مثل الأرض والمطر، مثل الليل والعتابا، مثل فمي وأرغولي، وأحلى وأكثر من ذلك.. سـأله والده تحبها كثيرا.. فراح عبدالله إلى عينيهها وثوبها المطرز بالأحمر والأخضر، بحبها يابا، لما اشوفها نازلة تملأ جرتها من البئر باغضب على الأرض لأنها تظل ناشفة تحت قدميها، ولا تخضر وتنبت العشب كي ترتاح أقدامها في السير.

صرخ الأب في سواد الليل.. عبد الله أنت رجل، لا تدعهم يعرفون الفرح.. قتلوا والدك.. سرقوا أرضك.. اغتصبوا حبيبتك..

قال عبد الرحمن مرشد: على اليمين إن قلب عبدالله العفش يلتهب مثل هذه النار، الله يستر.. أو أقول "وكان يحدث نفسه" خليها تصير، إلى متى يجب السكوت على الظلم، بنت وتحبه فلماذا يأخذها المختار لابنه.. ألا يكفي كل ما فعله؟ يكفي.. لقد جعلنا نرى نجوم الظهر.

قال الرجل العجوز لابنته وطفا: لازم تتزوجي ابن المختار، قالت البنت: لا والله يا والدي.. أنا أكرهه.

قال العجوز: أنا ليس لي أحد في هذه القرية، نحن فقراء وضـعفاء.. وهو قوي، ظالم، يستطيع أن يفعل ما يشاء، عساكر الإنجليز دايما في بيته.

قالت البنت: أطيعك في كل شيء يا أبي ولكن..

قاطعها العجوز بحزم: يا وطفا ترضين لشيبتي الهوان والبهدلة.

بكت البنت ووارت رأسها بغدفتها، وأسندت جسدها إلى جدار البيت.

قال لها العجوز: أعرف أن قلبك يميل لعبد الله .. أشـهد أمام الله إن والده بطل، وأنه شـرف قريتنا، وابنه يسـتحق كل خير، لكن ما باليد حيلة.. ثم شد جذعه المحني، وقال بحزم، وطفا.. أنا أعطيت كلمتي للمختار.

يا وطفـا الحلوة نزلـت تتملي
يا قـلبي اشـــرب المر والخلـي
والله لـو كـنـنـتي عـني تـتـخـلـي
عنـك مـا اتخلى مهمـا يســـوونا

وفي أيام الحصـــاد، مع ضـــربات المناجل، دارت الأغاني التي قالها عبدالله في وطفا، وانتشرت، وصار الناس يتشاجرون بالكلام فمنهم يقول: عبد الله معه حق.. ومنهم من يقول: عيب.. الحب يجب أن يظل في القلب وحرام التشهير في بنت الناس.

لكن حب عبد الله ووطفا أصــبح حديث البلد، وانتقل من الهمس والســر إلى العلن، وكان الناس بترديدهم الأغاني والأقوال، ينتقمون من المختار وعائلته التي تدعمه، وتنهب خيرات القرى المجاورة، وتسلط سيف إرهابها على رقاب العباد.. إلا أن المختار أصــر على تحدي الجميع، ولم يتراجع عن خطوبة البنت لابنه ووجد أنه بإصــراره هذا، إنما يقطع على القرية أي تفكير بالتحدى، أو الخروج على الطاعة.

حمل بارودته وطلع على رأس الجبل
يا خســارة السـبع بإيد النذل اتقتل
مصــيرك يا زمن معــانا تتعـدل
نـقـتـل الخـايـن ونـوخـذ ثارنا

نط محمود عليان إلى منتصف الحلقة وقال وقد انبسطت أساريره: يسلم فمك يا عبدالرحم.. هذا أحلى كلام قلته في حياتك.

ياللي ســـرقتوا البــارودة من إيــده
بــتــظــنــوه مــات وأنــتي عــيــده
يا عبــد نــذل غــدر في ســـيــده
بـكـره يـرجـع بـنـكـمـل عـرســـنـا

قفز عبد الرحمن مرشـــد وقال: تعرف يا محمود عليان.. والحكي للجميع، ليلة أمس، خير والصــلاة على النبي، جاء إلى والد عبد الله– الله يرحمه في قبره– وكان يرتدي ملابس خضــراء الدم كان يسـيل من صــدره. كان دمه يشـحب مثل دم العنز عند ذبحها، فتح ذراعيه وقال والابتسـامة تملأ وجهه: ياعبد الرحمن أنت صـاحبي، تعال آخذك بالأحضـان.. مشـتاق لكم جميعا، ولكني زعلان منكم.. لماذا؟ لماذا ســـكتم؟ لماذا قبلتم الذل والهوان؟ أنتم تعرفون من باعني للإنجليز.. دمنا أمامكم يا عبد الرحمان إنه يصيح بكم أن تلحقوه وإلا فقدتم كل شيء.

صـــرخ عبد الرحمن مرشـــد.. آخ..آخ.. يا أبو عبد الله .. والله البارود موجود والرجال رجال.. ولكن.. ولكن.. لا تظلمنا.. نحن لســـنا نساء لنسكت على الذي جرى..

وســـالت دموع الرجل على عرض وجهه فمســـح دموعه بأطراف كوفيته، ثم غاب في الظلام، وهو يلعن بصـــوت متهدج.. والله دمك لن يذهب هدرا.. والله ستعود الفرس لفارسها يا أبو عبد الله.

سكتت النسوة عن الغناء، وأخذت النار تخم، بينما شرع الرجال ينسحبون الواحد تلو الآخر.. بصمت، وحزن، لقد هزمتهم كلمات عبد الرحمن مرشد عن المرحوم أبو عبدالله، ثم إن المختار لأمر لم يتبينوه قد أمر بالكف عن الغناء وبإطفاء النار وإنهاء كل شيء.

شبك أصابعه وأصابعها، كان يسمعان وجيب قلبيهما، ويريان رغم سواد الليل دربهما الذي يسيران عليه، والذي سيوصلهما إلى أي مكان لا يطالهما فيه انتقام المختار..

قال عبد الله:

– سوف نعود إلى القرية ذات يوم..

قالت وطفا:

ومعنا أطفال كثيرون، واحد له اسم والدك، وبنت لها اسم المرحومة أمك..

قال لها عبد الله:

– وآخذ أرضي التي اغتصبوها.. ونبني لنا على ترابها بيتا.. من الحجارة البيضاء الناصعة، أنقلها حجرا حجرا وابنيها حجرا حجرا..

قالت له:

– أنسيت أولادك الذين سيعاونونك في بناء البيت؟

ابتسم ونقل حرارة قلبه وفرحه إلى اصابعها..

عندما وصلا إلى قطعة الأرض التي لهما والتي اغتصبت.. قال لها:
– ما رأيك أن نرتاح قليلا هنا..
أدركت أحاسيسه وعرفت ما يريد، قالت: نرتاح هنا ياعبداله..

جلسا وأصابعهما متشابكة، ثم تمددا على ظهريهما وبعد قليل بدأ القمر يطل من نهاية الأفق البعيد.. ويرسل ضوءا مؤنسا، وكانت أنغام أرغول عبد الله تذوب في ضوء القمر وتعود فتتغلغل في التراب. وكان البناء البهي الناصع الذي تحدثا عنه يتشكل أمامهما على الأرض التي لهما..

الذي مات عند قمة الجبل

الصعود إلى الجبل

إنهم المغول، جاءوا واكتسحوا بلاد خوارزم، تدفقوا في المدن والقرى، أكلت خيولهم الزرع، وسيوفهم بترت، وذبحت، وحزنت الأوردة، وأطارت الأعناق، خوارزم الآن تحاول أن تلتف على نفسها، أن تلعق جراحها، تبذل جهودا هائلة كي تتماسك، وتعي ما يحدث.

قال جلال الدين شاه:

– لن نحني رؤوسنا.. يا قادة جندي، أطحنوا عظام الشهداء واصنعوا منها سيوفا. قال كبير قادة الجند، وكانت الأوسمة، تزين صدره العريض:

– يا سيدي ومولاي جلال الدين، فلتقدم الولاء والطاعة للمغول، عندئذ يمكنك أن تحتفظ بالعرش، وتنقذ عيتك من وطأة الاحتلال.

استل جلال الدين سيفه، ولوح به أمام عيني قائد الجند وببطء قال:

– هكذا إذن تزين صـــدرك بهذ الأوسمة، وأنت لم تخض معركة واحدة في حياتك، ولم تقم سـوى باسـتعراضـات في الأعياد الرسمية، ثم تجبن وتطالب بركوع خوارزم تحت أقدام الغزاة. لقد خنتنا مرتين، مرة لأنك لم تفســح المجال لظهور أحد الشــجعان ليتبوأ منصــبا كبيرا قادة الجند، ومرة لأنك جبنت عن أداء الواجب.

رجع جلال الدين، شاه إلى الخلف خطوة واسعة، ورفع سيفه عاليا وصرخ:

– يا خوارزم الشجاعة، الباسلة، يا دماء الأجداد أيها البؤساء والجوعى، وامصـيبتاه لقد اكتشـفت بعد فوات الأوان أن الاحتلال في قصـري الذي ورثته عن الأجداد. ياكبير قادة جندي.

ارتعد جسـد كبير القادة، وارتعشـت على صـدره الأوسمة، وأجاب بصوت واهن:

– نعم يا مولاي.

– خذ.

ومرق السيف بين الرأس والجذع. سقط الجسد الضخم، وغرقت الأوسمة والملابس بالدم، وإذ رأى بقية القادة ما حدث، هرب بعضهم من النوافذ وبعضهم قفز إلى الباب.. وكان سيف جلال الدين يلاحق أقفيتهم ورؤوسهم.. وأيديهم..

وإذ رأى أنه وحيد إلا من الصمت والدم والأشلاء أخذ صوته يرعد ويتردد صداه في جوانب القصر.

– يا خوارزم.. ياعيني وحبي، أنت وسيفي وكبرياء التراب والدم، إن صهيل الخيول التي امتطاها الأجداد يتجمع في صدر جوادي، وفي قلبي وبين أضلاعي يصهل حقد الأطفال والنساء والأشجار وشمس خوارزم، إلى الجبل.. اتبعوني أيها الفقراء.. خوارزم الحزينة تناديكم.. خوارزم، التي ستكون لكم تناديكم.. إن صوتها يأتي من أعالي الجبال.. إنها تغدو ممزقة الثياب، حافية القدمين.. اتبعوها هناك.. التقوا بها عند القمة.

وإذ سمعته حورية، الجارية التي أحبته دائما، والتي كانت تتشمم رائحة ملابسه وأنفاسه دخلت إليه بنعومة الضوء وحلاوته، وأشرق وجهها

أمامه، فحاول أن يهدئ من ثورة غضـــبه العنيف، لكن بدنه ظل يرتعش فارتمت عند قدميه إذ رأته على تلك الحال.

– يا أميري وحبيبي، يا سيد قلبي إنني متعلقة بك، وإن روحي بين يديك، الآن سأبوح لك بحبي، إنني أرى نذر الفراق آتية.

أعاد سيفه إلى غمده، انهضها وأراح رأسه على كتفها.

– ياحـــورية.. أحببتك دون أن أجرؤ على إعلان حبي، كنت أخاف.. أخاف من كل من في البلاد.. كنت أخاف من كلام قادتي.. من كلام النبلاء وزوجاتهم.. كنت أرهب إعلان حبي.. ولكنني الآن أقول لك: أنت وخوارم في قلبي.. سنرحل لأحارب بكما معا.. فإما أن تكونا معا أو أموت هنك في أعلى الجبل.

حين اعتلى جلال الدين صـــهوة جواده، انطلق الجواد وكأنه يمخر الريح ويسابق الأشياء، كان صدر جلال الدين ممتلئا بنكهة شعر حورية ويعطر جســـدها، وكان وجه حورية بما فيه من دموع، وفرح، ووداع يخفق أمامه، وهو في عدوه كأنه يســـري إلى وجهها الذي تحيط به بســـاتين وعصافير وورد خوارم.

"يا أميري وحبيبي وسيد قلب".

"يا فرحي ياحوريتى"، إنني أسمع تغريد قلبك، إن قلبي خفق في صدري مثل راية منتصرة، لقد انعتقت من الخوف، وأنا الآن أحبك وسع هذه السهول.

"يا سيد قلبي، ياأكتمالى، يا أغاني الفرح التي طالما غناها قلبى".

– ياحورية.. ياحورية.. باركيني، إنني وحيد ليس معي الآن غيرك أنت وخوارم وجوادي وسيفي.

كل شيء ساكت وساكن، الأرض صامتة إلا من خفقات أقدام حصانه. الكروم مهجوة، وبعض الناس يطلون من وراء النوافذ ولا يصدقون عيونهم إذ يرون هذا الفارس الخوارزمي يرتدي ملابس الحرب ويطلق صيحات القتال يتبعه بعض الفلاحين من القرى الذين أخذوا يسدون الطريق أمام المغول بالحجارة، ويناوشون دورياتهم وكان جلال الدين شاه يقاتل بجيشه الصغير وهو في مقدمته ينتقل بذلك الجيش الصغير من مكان إلى آخر.

ملاحقة جلال الدين شاه

ظل رجال الحكم، الذين كانوا أيام جلال الدين شاه، في مناصبهم، وأخذ المغول يبحثون عن رجل يضعونه في منصب الأمير وكان شرطهم الوحيد: تأييد الاحتلال المغولى.

ولكن المشكلة التي كانت تربك التحالف المغولي الخوارزمي، نجمت عن القتال الذي يشنه جلال الدين، ومن انضم إلى جيشه..

أعلن المغول عن جائزة لمن يقتل، أو يقبض على جلال الدين:

"مطلوب حيا أو ميتا والجائزة خمسة آلاف قطعة ذهبية"، ولكن أحدا لم يخبر عنه.

ثم ألصقوا على الجدران إعلانات كبيرة محذرة كل من يثبت أنه يعرف مكان جلال الدين شاه ولا يخبر عنه، فإنه سيلاقي حتفه، ولم يتقدم أحد للإدلاء بمعلومات عن الرجل، ثم جنح رجال الحكم الموالي للمغول إلى الظهور بمظهر الحرص على جلال الدين، فأعلنوا في طول البلاد وعرضها – إلا المناطق التي كان يسيطر عليها جلال الدين ورجاله – عن نيتهم إعادة الرجل إلى سدة الحكم والوصول إلى اتفاق معه.

إلا أنه لم يعد، ولم يرسل خبرا، وقد سخر الناس من الأمر ذلك أنهم عرفوأ أن في الأمر خديعة ساذجة، وإذا فشلت كل الجهود أعلن في طول البلاد وعرضهأ، عن انعقاد هيئة المحكمة العليا لمحاكمة جلال الدين شاه– الذي كما جاء في الإعلان– يريد جر البلاد إلى الكوارث ويرفض الاحتكام للعقل، ويتعاون مع الفقراء والصعاليك.. والدعوة عامة.

صرخ الحاجب: محكمة

فوقف رجال سمان، ونساء تفوح من ملابسهن الأنيقة روائح العطور، ويطوق الفراء أعناقهن الناصحة، من الزاوية دخل القضاة، وكانت أمامهم بطونهم الكبيرة، أرسلوا نظرة جانبية باتجاه الحاكم المغولي، ثم ابتسموا له، فأومأ لهم.

أعلن كبير القضاة أن البلاد في خطر، عندئذ اشرأبت الأعناق السمينة في القاعة، وتطلعت العيون من خلال أجفان سميكة، فأضاف كبير القضاة: نعم الوطن في خطر، فجلال الدين شاه باع نفسه للصعاليك، ونحن كنا نخفي سرا خطيرا: إن جلال الدين شاه هو ابن إحدى الجواري في القصر والدم الذي يجري في عروقه غير نظيف، لذا ترون أن جلال الدين شاه عاد إلى أصله.. أما نحن أصحاب البلاد وأصحاب الملك وقادة الجند، فإننا لن نغامر بازدهار مدننا، وسوف نواصل حياتنا في ظل التفاهم مع.. المغول، الذين لا يريدون منا سوى إعلان الولاء والآن– وعادة الأبصار فتعلقت به – نعلن ما يأتي:

– يحرم جلال الدين شاه من أي حق في الملك. يعتبر جلال الدين قاطع

طريق يجب القضاء عليه، لأنه يسرق أموال الأغنياء ويعطيها لصعاليكه الفقراء، يهدر دم جلال الدين شاه الذي يعمل على جر بلاد خوارزم إلى الهلاك.

- ثم وقف القضاة وكان أول من صفق الحاكم المغولي، وكان اصطكاك الفولاذ والزرد الذي يرتديه قد جعل الأجساد البدينة ترتعش فصفقوا وأخذوا يلعنون جلال الدين شاه.

الموت عند القمة

قال جلال الدين شاه يحدث نفسه: ربما انتهى ولكن خوارزم لن تموت، ووضع أصابعه على مقبض سيفه: وأنت أيها السيف، أت لن تموت، سوف تظل في أيدي الذين سيقولون للمغول لا، وأنت ياحبيبتي حورية.. إن فمي جاف وأنت الندي الطاه الذي يبل شفاهي ويرطب جفاف قلبي. لقد باعوني علانية ياحبيبتى، إنهم يخونون كل شيء وهم يبررون خيانتهم.

جاءه أحد الحراس ونداءه يسبقه.

- يارفيقي وأخي جلال الدين شاه.

أجابه جلال الدين:

– نعم يا رفيقي، وأخي.

قال الحارس:

– الأرض تهتز.. لقد سمعت وأنا تحت تلك الصخرة عند السفح، صوتا هائلا يأتي من أعماق الأرض.

قال جلال الدين:

– أنا أيضا سمعت، لقد جاءوا إلينا في جيش رهيب، انفخ في أبواقك.

ومع انطلاق الأنغام من الأبواق، شرع الرجال يهبون من رقادهم وأيديهم على مقابض سيوفهم، وكأنما خيولهم شعرت بما يحدث، فأخذت تصهل وتحمحم، ثم تشرئب بأعناقها، وتضرب بأقدامها الهواء وصهيلها يرتفع، قال جلال الدين:

– إنهم قد جاءوا، وهم يظنون أننا جميعا هنا، أنهم يظنون أن القضاء علينا سهل، وأن جعل خوارزم تركع تحت أقدامهم أمر ممكن.

قفز إلى متن صخرة كبيرة قد نتر سيف ولوح به في الهواء.

– أيها الرجال، أنا قائدكم ورفيقم جلال الدين شاه ابن الجارية كما أعلنوا، أقول لكم: إن معركة غير متكافئة ستدور بعد قليل، إنكم مجرد عشرات من الرجال وهم ألوف، إنهم مدججون بالسلاح، ولكننا سنحارب كي لا

تركع خوارزم إلى الأبد، إنني اعرفكم ، حاربت وإياكم، جمعنا معا، واجهنا الموت معا، أقول لكم: من يشـــعر بالخوف فلينســـحب، وليتكنا نواجه قدرنا، أما أنا فكما عهدتموني، وكما يليق بقائد يحب وطنه فإنني ساكون في المقدمة، من يريد الانسحاب؟

وكان جواب الرجال بالتلويح بأسلحتهم، والغناء لخوارزم المجيدة وإذ هم في حميا الإنشـــاد جاءهم أحد الحراس ومعه جندي مغولي، ورجل من رجال الحكومة الموالية للاحتلال المغولي.

قـال الحراس: يارفيقي جلال الـدين شـــاه هنـاك رجلان جـاءا للمفاوضة، ماذا تقول؟

قال جلال الدين وهو يشير لرجاله أن يكفوا عن الإنشاد– دعهما يتقدمان.

قال الرسول الخوارزمي وهو يرتجف:

– يا سيدي الأمير صونا لأرواحكم فإننا نطلب إليكم تسليم أسلحتـكـم كي لا تحدث مجرة يروح رجالك ضـحيتها، ونحن، أقصـدهم يكفلون لكم محاكمة عادلة.

صرخ جلال الدين شاه:

– أيها الرجال البواسل، ماذا تقولون في رجل يخون وطنه ويعرض عليكم

الاستسلام؟

صرخوا بصوت واحد:

– الإعدام.

وبسرعة عجيبة، كان سيف جلال الدين شاه قد شال رأس الرجل الخوارزمي، أخذ الجندي المغولي يرتجف ويتكلم بلغة عجيبة، فارتفع صوت جلال الدين شاه:

– ماذا تقولون في جندي غاز جاء يحتل بلادكم، ويحرم أطفالكم الطمأنينة ويعرض عليكم الاستسلام؟، فارتفع صراخ الرجال:

– الإعدام.

وتدحرج رأس المغولي، والتقطت الشرايين الممزقة عند العنق واللحم المتهدل بعض الشـــوك والتراب، وكانت اللحية ترتجف وانفتحت العينان دهشة ورعبا، ثم إنه ضرب جوادي الرجلين بسيفه فسال الدم من كفليهما فانطلق في عدو مجنون.

ارتفع صوت جلال الدين شاه:

– ماذا تقولون في قائد يستسلم؟ فارتفعت أصوات الرجال:

– الإعدام.

وارتفع صوته مرة أخرى:

- وماذا تقولون في قائد يقدم سلاحه وسلاح رجاله للعدو؟

فارتفعت أصوات الرجال:

الإعدام.

صاح جلال الدين شاه:

- والآن يا رفاقي ليس أنا من يستسلم، وليس أنا من يسلم سلاحه، إن خوارزم تنتظركم، فهيا.. إليها.

الراية البيضاء

ابتعدت سيارة الباص. ظل الرجل عينيه براحته اليمني اتقاء لشمس الظهيرة اللاهبة، يده اليسري تطوي أصابع ابنه.
البيوت الطينية مهدمة مهجورة، مئذنة المسجد محطمة، رأى أفعى تقطع الأسفلت بسرعة رهيبة، فخاف ، وانكمش ابنه لصقه.

قال ناصر لأبيه:
– أنا ظمآن.
رد الأب.
– نرتاح في ظل أحد البيوت قليلا. ثم نبحث عن الماء..
بخار ساخن يتصاعد من الأرض الرملية، ويتلاشى في الفضاء السديمي، تلفت الرجل إلى الغرب، رأى عن بعد شريطا أخضر، ووراءه سلسلة من التلال تبدو مثل قافلة من الجمال.
– تعبت يا أبي الجو حار.
– تحمل قليلا يا ولدي، سوف نبحث عن الدرب، أخبروني أن حنفيات الماء قريبة من الدرب الترابي، وأن الدرب الترابي يقع في الطرف الجنوبي للمخيم.

تمتم الرجل:

– لو وصلنا الليلة إلى أريحا نكون قد بلغنا بر الأمان.. آه أريحا.. هل ترى يا ناصر. أريحا قريبة.

قال وكأنه يطمئن نفسه:

في عمان قالوا له: إذا اتجهت غربا من مخيم الكرامة، على الطريق الرملي، فإنك واصل حتما إلى جسر المندسة، هناك انتظر حتى المساء تنسحب الدورية الإسرائيلية.

رأى حنفيات الماء، اتجه إليها مع ابنه تحسس الماسورة السوداء التي تتفرع منها حنفيات صفراء فسحب إصبعها بسرعة، قال لناصر:

– لا تلمس الحنفيات إنها مثل النار.

فتح أحداها، وترك الماء يتدفق، كي يبرد قليلا. كان ينقل بصره بين الشريط الأخضر الممتد الذي يهتز في البخار الراعش، المتصاعد من الأراضي الرملية، وبين الماء المتدفق من الصنبو.

أخذ يثيل الماء على رأسه وقدميه وذراعيه. بلل الكوفية وابتلع بعض الماء.

– ناصر، أصبح الماء محتملا.. اشرب.

بصق ناصر الماء.

سأله أبوه.

– لماذا.. هل هي ساخنة؟

– لا، إنها دلعة..

انقبضت ملامح ناصر، فشجعه والده.

– أمامنا مشـــوار طويل يجب أن تشـــرب، كل الناس الذين عاشـــوا هنا اعتادوا على هذه الماء.

تمدد لصق أحد البيوت، قبالة الدرب، قال الأب:

– إذا مر أناس من هنا، فإننا سنراهم.

أراح ناصر رأسه على ركبة والده، وركز الأب ظهره على الجدار.

"مخيم العروب" بعيـد الآن، هنـاك الأرض حمراء، المـاء بارد حلو، الشمس دافئة والأشجار كثيرة، لو أنني أطير الآن فإذا بي في المخيم، هناك التقي بالجيران والأهل، الحق على أنني خرجت، كان يجب ألا أخاف، لكن ماذا أفعل؟ رأيت الناس يهربون فهربت، ظننت أن الزوجة والبنات غادن المخيم مع من غـادر، آه، إنني مجنون، كـان يجب أن أعرف كم هي عنـدة تلك المرأة. منذ اليوم الأول قالت: "من هالمراح ما في رواح"، إيه، ولكن والطائرات تعبر فوق رؤوسنا، والجنود يتدفقون إلى الشرق والناس يتركون

كل شيء، يبحثون عن النجاة، بحثت عنها وعن النبات فلم أجدها، التقيت بناصر، كان الأستاذ قد صرف التلاميذ من المدرسة فاقتدته من يده، درت، طرقت الأبواب.. لا أحد، جارنا أبو عبد الله الفران، قال لي: يا مجنون، زوجتك أخذت البنات وراحت مع الناس، في عمان نلتقي بهم، سألته: وأنت لماذا لا ترحل؟ أجابني: أرحل إلى أين؟ لا، هنا سأموت، إذا شئت ابق، أنت حر، تركته، وضربت في الدروب الوعرة، تسلقت التلال والجبال، تحاشينا القدس، ثم إلى الخان الأحمر، أريحا. نهر الشريع، جبال السلط، إيه.. وهناك ارتحنا يوما كاملا.. ولكنني لم أجدها، لاهي ولا البنات، التقيت ببعض الجيران فقالوا: يا مجنون زوجتك وبناتك ظللن هناك. بحثت عن ابن جارنا الفران، وجدته في الأشرفية، يقيم في خربوشة مع زوجته وطفله، قال لى: يا عمي أبو ناصر زوجتك وبناتك هناك، في المخيم.. يسلمن عليك، ويقلن لك ارجع.

قلت له كيف أرجع؟ قال: يابطل.. مع الناس، أنت مازلت شابا رغم كل شيء.

قلت له، يا ولدي أنا تخطيت الخمسين، كل نسلي بنات، صبرت حتى منّ الله على بناصر، لا أستطيع أن أغامر.

ضحك عبد الله ابن الفران، أخبرني: دوريات اليهود تحضر في الصباح ثم تنسحب في المساء، اذهب إلى الكرامة.. ومن هناك وحين تصل... ثم بعدئذ.. ومن أريحا بإمكانك أن تركب في سيارة باص إلى القدس.. ثم: هب، وإذا بك عند أم ناصر والبنات.

تنهد وفتح عينه، مش قليلا، رأى شابا يتجه غربا، فناداه وسأله: إلى أين؟ أجاب الشاب: إلى الضفة الغربية.. اقترب أبو ناصر وابنه. ساروا معا، أبو ناصر، وولده، والشاب.

غنى أبو ناصر بصوت أجش:

اللي انكتب عالجبين
لازم تشوفوا العين

كانت آثار جنازير الدبابات ما تزال بادية في الأرض، ورصاص البنادق والرشاشات ملقى بين الأخاديد الصغيرة التي مازالت تدل على ان الدبابات عبرت هذا الدرب، حين رحلت مخلفة وراءها المدن، والقرى غربي النهر، التقط ناصر بعض الرصاصات خبأ احداها في جيبه، ثم قذف الأخريات بعيدا، وأخذ يركل ما يصادفه بمقدمة خذائه وكأنها كرات.

قال أبو ناصر:

– إذن الأخ من الخليل..

وأضاف:

– راحت.. والله راحت، كنا بمصيبة فأصبحنا باثنتين.

لم يعلق الشاب، كان يدخن، والعرق يسيل على وجهه ورقبته، تنهد فقط، طوح بعقب السيجارة بعيدا وقال:

– هربنا من هذا الدرب، كنا في منطق الخان الأحمر، حين اشتعلت الحرب في اليوم الأول فرحنا، تابعنا الأخبا من الرديوا، وفي اليوم الثاني جاءت الطائرات، في فجر اليوم الثالث تركنا مواقعنا، اتجهنا إلى عمان، بدلا من التوجه إلى القدس.

علق أبو ناصر:

– ولكنهم يجمعون الجيش في الزرقاء وعمان.

قاطعه الشاب:

– يا عم شر البلية ما يضحك، ماذا تظن. لن يفعلوا شيئا، يكفينا ما حدث، دائما نحن نأكل الضربة

– ولكن ألا تخاف من العقوبة.. أنت تترك الجيش.

- أنا أترك الجيش، نعم أنا أترك الجيش، ولكن إذا أرادوا معاقبتي فليتبعوني إلى الخليل..ضرب الولد إحدى الرصاصات، ولكن قدمه ارتطمت بحافة الحفرة الصغير، فسقط على وجهه، فلوثت الرمال البيضاء صدر قميصه وبنطاله، نهض الولد، وأخذ ينفض التراب عن ملابسه.

قال الشاب:

- هه، حتى البندقية لم أسلمها لهم، تركتها في بيت عمي.

- لماذا تركتها، هل تريد بيعها؟

- لا، لو أردت بيعها لتخليت عنها للبدو.

وأضاف موضحا:

- حين هبنا، اتجه كل واحد منا على هواه، أنا اخترت الدروب الوعرة، تسلقت جبال السلط ووصلت إلى..

ولوي رأسه إلى الوراء وأشار إلى القمم البعيدة..

- هناك.. هناك بطاريات المدفعية السادسة.. التقيت ببعض البدو، سألوني إن كنت أبيع بندقيتي، لكني رفضت، عرفوني من لهجتي.

فقالوا: أنت لا تحتاجها، اكسب ثمنها، لن يحاسبونك، تقول

فقدتها... ولكني رفضـــت، قلت لهم: ألا تروني أنا عســـكري، وواصلت سيري بين الصخور، فتبعوني، عندئذ عمرت حبة في بيت النار، وأطلقت، سمعت صـرخة من أحدهم، فركضـت، رغم التعب وتواريت بين شعاب الوديان.

شمس تموز المحرقة، ترسـل جحيمها، يسـيل العرق من أبدانهم، لكنهم يواصلون السير رغم الظمأ، وتيبس الشفاه والحلوق والعرق،والدخان.

بات مخيم الكرامة بعيدا خلفهم، وبدا الشريط الأخضر يتضح أكثر فأكثر، والتلال الرملية البيضاء تكبر.

قال أبو ناصر بشيء من الفرح:

– اقتربنا..

قال الشاب:

– ليس المهم أن نصـــل النهر، المهم ما بد النهر، لا تطمئن للكلام الذي سمعته في عمان، هناك دوريات تتحرك على كل الطرق، وفي مداخل المدن والقرى، ثم الأخطر من كل شيء الدويات خلف النهر:

وعاد الرجل يغني:

اللي انكتب عالجبين

ثم صمت فجأة، وسال الشاب:

– هل يطلقون النار على الناس إذا رأوهم يجتازون الجسر.

ابتسم الشاب بحزن وأجابه:

– ماذا تظنهم يفعلون، هل يستقبلونا بالأحضان؟

قال أبو ناصر:

– كنت أفكر في هذا.

وأضاف:

– لا يؤمن لهم، كيف طردونا، وكيف سيسمحون لنا بالعودة إلى أراضينا وبيوتنا وأسرنا؟

واصلوا سيرهم، وإذا انعطفوا قرب بيت أبيض وحيد، التقوا بالأشجار وأعواد البوص الخضراء، ورأوا بعض الناس تحت الأشجار، وما إن ساروا بضع عشرات من الأمتار، حتى كان الجسر تحت عيونهم، والدرب تعبر فوقه، وتمر بين التلال باتجاه أريحا.

جاءت سيارة لاند روفر، أثارت خلفها سحابة كثيف من الغبا، توقفت، وهبط من جوفها بعض العسكريين، أخرج أحدهم منظارا وأخذ يراقب التلال، والأشجار، والسهول شرقي النهر.

قال أبو ناصر:

– هل تراه؟ إنهم يراقبون..

ظل الشاب ساكتا، رأى الرجل رصاصة كبيرة في يد ابنه فانتهره.

– ارمها، لسنا بحاجة لها، إذا عبرنا الجسر ووجدوها معنا، سيقتلوننا، لكن ناصر لم يلقها بل أخفاها في جيبه.

استلقوا منهكين تحت الأشجار، ألقوا أسئلة واصغوا إلى أسئلة من الرجال المسلتقين بكسل تحت الأشجار.

قال أحد الشباب، وكان يتمدد على بطنه ويضع وجهه بين يديه المعقودتين، ويرسل نظراته عبر الأشجا باتجاه الجسر والجود:

– سننتظر حتى المساء، إنهم ينسحبون في الليل.

سأله أبو ناصر:

– أمتأكد أنت؟

أجاب الشاب:

– طبعا متأكد، لقد ذهبت إلى أريحا أكثر من خمس مرات، أحضرت كل أغراض البيت، فقط بقيت ماكنة الخياطة.. هذه آخر مرة أعود.

سأله أبو ناصر:

–لماذا؟ هل أنت خائف.

قال الشاب بلهجة مدعية:

– أنا لا أخاف، ولكني أحضرت كل حاجيات بيتنا.. المرة الماضية نقلت

فاشنا وملابس إخوتي وأخواتي، على ثلاثة حمير وجدتها في مخيمنا..

واصل حديثه:

- هذا الدرب يقود إلى مخيمنا رأسا.. مخيم النويعمة.

سأله أبو ناصر:

- ومتى ينسحبون تقريبا؟

أجاب الشاب:

- يعني بعد قليل.

سأله الشاب الخليلي:

- هل ينسحبون حتما؟

أجابه:

- ليس دائما.. أحيانا ينسحبون وأحيانا لا..

تنهد أبو ناصر، تطلع الخليلي إليه، هز رأسه.

أضاف الشاب.

- إذا لم ينسحبوا الساعة السادسة فلن يتركوا موقع كمينهم هذه الليلة..

قال أبو ناصر بنفاد صبر:

- الساعة الآن السادسة والربع، إنهم لن ينسحبوا كما يبدو.

- قا الشاب:

– لا أمل..

تحركت سيارة اللاندروفر، وانعقدت سحابة صفراء كثيفة في الأفق، عبرت من فوق النهر إلى الشرق، وراحت مبتعدة فوق التلال.

قال أبو ناصر متسائلا وعيناه في عيني الشاب:

– هل تظنهم يقتلوننا لو عبرنا.. قا الشاب:

– لم أرهم يفعلون، ولكن الحذر مطلوب.

قال الشاب الخليلي لأبي ناصر:

– يا رجل لا تغامر.. معك طفل، حرام.

خلع الرجل كوفيته البيضـــاء عن رأســـه، لفها حول عود بوص قال لابنه ناصر:

– خذ هذه واذهب بها إليهم، لن يفعلو معك شـــيئا، أنت طفل، إنهم لن يقتلوك.

قا الخليلى:

– يا رجل لا تغامر.. ألا تفهم، ماذا دهاك؟

شـد الرجل على ذراع ابنه ودفعها باتجاه الجسـر، اصـفر وجه ناصـر، سـار صـوبهم بخوف، كانت الكوفية البيضـاء ترفرف فوق رأسـه وهو يسـير ببطء، ويده الممسكة بعود البوص ترتجف.

قال الخليلي:

– أتظن أن هذه الراية البيضاء ستعيدك إلى البيت؟ مسكين أنت.. يقولون: صاحب الحاجة أعمى.

كان الرجال المنتشرين تحت الأشجار يراقبون الطفل والراية البيضاء وفجأة دوي عيار ناري، تبعه عيار آخر، فسقط ناصر على وجهه والدم يسيل من كتفه. ركض والده بجنون، ولكن الخليلي انتهره، فأحنى جذعه، وحمل الولد بين ذراعيه وعاد به زحفا والدم يملأ ملابسه، والراية البيضاء قد صبغت بالدم، انتزعها والده من يده وطوح بها وأخذ ينتحب ويصرخ ويندب حظه.

قالو له:

– اذهب بسرعة إلى مخيم الكرامة، ومن هناك إلى السلط بسرعة في السلط يوجد أطباء.

اتجه إلى الشرق، كانت الشمس تغيب وراء الجبال البعيدة، وبعض النسمات تهب. حمل الخليلي الراية. التي تقطر دما، ربطها بغصن إحدى الأشجار فرآهم وهم يحملون بنادقهم وقد أطلوا من وراء التلة.. كانت ملامحهم حمراء. وكانت قطرات الدم تسيل من طرف الكوفية.

اتجه الخليلي وراء الرجل بصمت وحزن.. وغضب.. سمع صوتا:

- انتظر، ربما ينسحبون.

لم ينظر إلى صاحب الصوت، ولم يسأله.. ولكنه قال لنفسه: حتى لو انسحبوا، إنني لا أضمن انسحابهم من الكمائن الأخرى..

نادى بأعلى صوته:

- يا عمي أبو ناصر.

ركض إليه.. أخذ الطفل من بين ذراعيه.. وضع رأسه على صدره، قال له:

- لا تخف، سيعيش.

حاول أن يريحه بين ذراعيه، فسقطت الرصاصة الكبير الصفراء على التراب.

عندئذ التقطها الأب.. وضغط عليها.. كانت ساخنة.. ومبللة بالدم...

الذي خدع المدينة

انتظر طويلا في الســـوق، وبعد طول ملل وانتظار جاءت ســـيارة الباص. هب من جوفها أبناء القرية، وعلى وجوههم تعب وهم ثقيل. إنهم يعودون بعد أن باعوا خضارهم وفواكهم في المدينة. نزلت بعض النســـوة اللاتي أخذن أطفالهن إلى المدينة بد أن يئســـن من شـــفائهم على أيدي الدايات، أو الطبيب الوحيد الذي يحضر ويرحل بسرعة.

صـعد جابي الباص على سـلم خشـبي إلى سـطح السـيارة، وأخذ يقذف الصناديق الخشبية الفارغة وبعض صرر الملابس والحقائب وصناديق الكرتون. تبادل النكات والشـتائم والعبارات الجنسـية مع الركاب، ثم هبط وهو ينادي:

– شام. ياسلام.. يلا، اصعدوا .. إلى الشام.

صعد ببطء وحذر، الصندوق الكرتوني بين يديه..

قال الجابي:

–لا يجوز.. ضعه فوق.

أجابه:

لا يمكن، هذا زجاج، برطمانات زجاج فيها عسل ياعيني.

ضحك الجابى، وسأل بخبث:

– عسل نحل صافي!

رد عليه:

– نعم عسل نحل صافي، أتظنه عسل بطاطا.

وهو يضحك أخذ يهز رأسه:

– أظنه عسل فجل.

– ما أخف دمك، أتظن ذهابك إلى المدينة يجعلك أفهم من غيرك؟

نظر إليه الجابي نظرة استخفاف:

– وماذا تعرف عن المدية ياعين أمك؟

بحص وضع الصندوق الكرتوني في حضنه، ثم لف أطراف كوفيته حول رقبته، وتنفس بارتياح. رمق الجابي من زاويتي عينيه.

– أعرف عنها أكثر مما تعرف بكثير، ليس المهم أن تسافر كثيرا، المهم أن تعرف كثيرا، أليس كذلك؟

–آه.. ولكن هل سافرت كثيرا؟

– آه.. سافرت كثيرا، الشام إنها الآن مدينة، كانت صغيرة وحنونة.. لكنها قاسية الآن، أضواء سيارات كثيرة، فنادق كبيرة، بارات لا تحصى، إيه تغيرت! ذات يوم تعرفت بصبية كانت قادمة من إحدى القرى، تعلقت بها، وهي أيضا، ولكنها أخذت تتفتح وتطلي وجهها بالأصباغ.. قالت لي في النهاية: مللتك، أنت مفلس، ماذا تظن ، هل ترى أنني هربت من قريتي لألتقي بك؟ لا، وراحت، اندفعت في جوف المدينة.

قال الجابي:

حبيبي المدينة غول، أيام زمان..

مد علبته للجابي:

– دخن.

– عمار، لا أدخن.

– كنت أدخن علب دخان أجنبي، يلعن أبو الفقر، الدنيا دولاب، على كلي، إذا سارت الأمور كما أتمنى. إيه، كنا؟ في المدينة تعلمت أشياء كثيرة، ولكن بعد أن دخت وفقد الكثيير، النقود كانت تدخل وتخرج من يدي مثل الرز.. ولكن الدنيا دولاب، وفي المدينة إن لم تكن ذئبا..

قال الجابي:

- المدينة غول، السهر، البنات الدنيا...

- الدنيا تغيرت، البنت - تعرف من أقصد - أيام زمان كانت تعامل صاحبها كأنه زوجها.. اللعنة.. البنات والخمر.

- مرت بعض العصافير الدورية، وطيور السنونو رفرفت، وانتفضت بحركات حادة، ثم التصقت بسقوف البيوت.

- يلا... للمدينة.

جاء السائق، جلس وراء المقود، حرك مفتاح السوتش، لحس بنزين، هدير بطيء وارتجاف يتسرب في جسم السيارة.

غصت السيارة بالركاب، وفوق رصت الصناديق الخشبية، الخضار والفواكه في داخلها، والحقائب المحشوة بالملابس مشدودة بالحبال الثخينة.

قال الجابي:

- المدينة غول، أنا أعرفها أكثر منك.

ابتسم له الرجل، ونفث الدخان من زاوية فمه وكأنه يقول له: يا مسكين، كم سكينا أكلت، كم مرة سجنت؟

سأله الجابي:

- عسل نحل صافي، ها؟

ضحك الرجل:

- يا ملعون وما علاقتك؟

أجابه:

- ولكن هل تظنهم بلهاء؟

- المدنية امتصت عمري.

ثم وصلت السيارة، فاندفع الناس يتسابقون لإنزال أغراضهم، أو يمضون فارغي الأيدي إلى المدينة.

ملأت رئتيه رائحة مازوت السيارات المحروق، ودوخت عينيه الأضواء الملونة والنيونات والإعلانات الضوئية المتراقصة، شعر ببعض الخوف والدهشة، كأنه لم يكن هنا ذات يوم، كأنه لم يجب الشوارع، ولم يرتد المقاهي والبارات في وسط المدينة.

أخرج برطمانات العسل الزجاجية الصغيرة ورصها أمامه، وشرع ينادي:

- عسل عسل، من الورد والزهر ياعسل، أحسن دواء العسل..

لكن أحدا لم يبتع منه، أو يسأله عن بضاعتها ونوعها وسعرها، حمل الصندوق على كتفه واتجه إلى "أبي رماة"، في مكان بارز، وجوار إشارة المرور عرض بضاعته.

مضــت قرابة ســاعة، وهو ينادي، وتارة يغني للإيهام بأنه فلاح تماما وغشيم أيضا.

– ماذا معك؟

أطل الرأس الضخم من نافذة السيارة.

– عسل أصلي، من الورد والحنو و..

الضوء الأخضر، تحركت السيارة، توقفت بعد بضعة أمتار، رأى رجلا ضخما يخرج ويتجه صوبه.

– ها، هات نرى.

رفع الســـدادة المعدنية وأراه النحل فوق الســـائل الحلو البني اللون والممزوج بالخلايا الشمعية.

–لا بأس، بكم؟.

– بثلاثين كل برطمان.

– لا، غير معقول، كلمة واحدة، كلها بمائة ليرة.

– ولكن أنت تعرف، هذا غير الذي يباع في المحلات.. والله الـ..

– لا تحلف يارجل، أصدقك، ولكن هل تبيع أم أمشي؟

حمل القطعة المعدنية النقدية الوري وسار لا يلوي على شيء.

مر على بائع تبغ، حدد الصنف الذي يريد، أمسك البائع بالورقة النقدية قلبها أمام عينه، تطلع إلى وجه الرجل متفحصا، أعاد القطعة إليه:
– خذها واذهب، لولا ضميري لأخبرت الشرطة عنك، هذه زائفة، يبدو أنك فلاح غشيم..

سار ذاهلا، اصطدم بالناس، شتموه، صحيح أن العسل ليس صافيا، صحيح أنه صنعه من السكر ومزجه ببعض العسل الصافي، اصطدم رأسه بإشارة المرور، أحس بسخونة في جبيه، مد أصبعه تحسس نفورا صغيرا، ولكن الدم لم ينفر من تحت الجلد، رفع القطعة النقدية باتجاه الشمس محاولا اكتشاف زيفها، فغطت الوجوه والأضواء، والسيارات، وتصاعد عواء وحشي في رأسه فأخذ يركض، يركض والوجوه أمامه تكض وقد غطتها القطعة النقدي الورقية.

وهو في حمى عدوه، سقطت كوفيته عن رأسه، لم يسل الدم من جبينه، فواصل ركضه التائه..

غريب في المدينة

دفع حساب الفندق خرج إلى الشارع المزدحم. تسكع كثيرا. جلس في مقهى شعبي، ثم تناول غداءه في مطعم (العروبة) الذي عرف عليه في مرات سابقة. راقب الإعلانات التي تحمل صور ممثلي السينما. مر أمام مسرح شوشو.

آه يا بلدنا.. جوعانين..

خرج من صالة السينما عند العصر، كان فيلم كاراتيه مليئا بالتهويل. اتجه إلى البحر. جاءت نسمات رطبة فغذ السير. فك أزرار قميصه وتلمس شعر صدره الخشن، وتشمم رائحة عرقه. (أنا بحاجة إلى حمام ساخن).

بارد، اللعنة! وصل نهاية الشاعر، جاء البحر أزرق عريضا.. وبلا نهاية.

قطع الشارع الأسفلتي إلى الرصيف. رأى بعض الناس يلوون رؤوسهم متطلعين إلى السماء وفجأة دوي انفجار هائل وانفشلت الخطوط البيضاء وراء الطائرات المعادية. استند إلى الحاجز الحديدي، أرسل نظرات

طويلة، أشعل سيجارة امتص منها بعض الأنفاس، ثم قذف بها إلى البحر، ارتعشت قليلا في الفراغ، مع إلهاء الآتي بين الكتلتين الترابيتين المزروعتين في البحر ثم تلاشت في الزبد.

تناهت أصوات صافرات الإنذار إلى مسامعه، أطلقت إحدى السيارات صفيرا وهي تلف المنعطف الحاد.

حرك قدميه ببطء ووجهه إلى البحر.

سمع بائع الذرة المشوية:

– لماذا لا يطلقن عليها المدافع بدل صفارات الإنذار؟

عادات الصافرات تطلق أصواته الحادة.

علق بائع الذرة:

– راحوا، رجعوا بالسلامة!.

تدفقت رائحة الذرة المشوية إلى رئتيه، جلس على مقعد حجري، أخذ ياقب العابرين والسيارات، والباعة، والزوارق التي تلعب في عرض البحر. بدأ قرص الشمس يحمر وهو يسقط في الأفق الرمادي وواء البحر. بدت الشمس وكأنها تغرق في الماء، أصبحت قبالته، كأنها ستقف على حافتها الدائرية، وأشعتها الحمراء الصفراء تحل في الماء، وتنسرح على الأمواج. أصابعه تلتقط الحصى وتقذف به في الزبد الفاتر الصاخب.

– معك ولعة.

تنبه على الصوت، رأى شابا ينتصب بجواره وفي فمه سيجارة غير مشتعلة. أخرج الولاعة، أشعل له السيجارة.

قال الشاب:

– الحياة حلوة، انظر إلى الشمس كأنها من نحاس، قبل قليل كانت كأنها من فضة، أحيانا كأنها من ذهب.

وراحت الشمس وراء الأفق، وبدأت بعض النجوم ترش أنوارها في غبش المساء.

قال الشاب:

– يجب ألا تقترب كثيرا من الحافة، هنا ينتحر بعض الناس.. يغوصون هناك في الزبد يتمزق لحمهم على أسنة الصخور الحادة المشرئبة تحت الماء. إنهم يضيعون في أجواف الأسماك.

قاطعه بابتسامة.

– ولكني لا أريد الانتحار، كنت أراقب الشمس والبحر والزوارق..

قال الشاب:

– أرجو ألا أكون قد ضايقتك يبدو أنك غريب.

أومأ له موافقا.

ابتسم الشاب، وقال:

– سعيدة..

ثم راح، ظل وحيدا مع أضـــواء النجوم البعيدة وهدير البحر، كانت الأمواج تضــرب وتضــرب بعنف كأنما توشــك أن تفجر الأرض تحت أبنية بيروت. أطلقت الســيارات العابرة صــفيرا، فوقف واســتدار، والتمعت أضواء النيونات في عينيه.

كانت تهز جســدها بإغراء، وتحرك حقيبة يدها حركات واســعة نظر إلى وجهها لحظة فالتقطت نظراته..

– لو معك سيارة.

نظر إلى عينيها الكحيلتين وإلى شـعرها "هذه باروكة وليس شـعرها" سألته:

– أعندك بيت؟

ابتسم.

سألته بدلال:

_ ألا أعجبك؟ إذا عندك بيت سأذهب مع في سيارة سرفيس.

قال لها: أنا غريب، لا بيت ولا سيارة.

قالت له:

- وأنا غريبة، لست من بيروت.

رأت ظلال كآبة في عينيه.

- سأرضيك.

- قلت لك أنا غريب فعلا.

قالت له:

- وأنا.

سألها:

- أليس لك بيت؟

نظرت إليه وابتسامة ساخرة على زاوية فمها:

_لأ.

قال لها: وأنا لا بيت لي.

وكأنه يحكي لنفسه.

-كان لي بيت في أريحا.. وضـــاع.. ثم ابتني أهلي بيتا في (عمان) .. ظلوا هناك، وأنا.. هنا بعيدا عنهم.

رآها تبتعد عنه، وحقيبتها تتأرجح إلى جواها راسمة نصف دائرة.

أوقف سيارة تكسى، سأله السائق:

- إلى أين؟

– الجامعة العربية.

أخذ يراقب الأبنية والشوارع والمارة عله يلمح وجها يعرفه.

سار في شارع فرعي وراء سجن الرمل، دخل إلى بناية "أبو خليل"، صعد به الأسانسير إلى الدور السادس، نظر إلى الباب فرأى أن الورقة التي تركها بالأمس قد اختفت، "إذا لابد أنه هنا، ذلك الصديق اللعين، ضغط على الجرس فتجاوب الرنين في الداخل، عاد وضغط على الزر فانفتح الباب، ومد الصديق راسه، نصفه الأعلى عار، ونصفه الأسفل في بنطلون بيجامته.

– غير معقول ظننت أنك عدت إلى القاعدة..

تعانقا، اقتاده الصديق من ذراعه:

– سأعفك بصديقتي.. هالة.

أتت من غرفة النوم، كانت تحمل في يدها اليسرى مجلة أجنبية مصورة، مدت له يدا لينة وحيته بود.

– هذا صديقي يوسف.. حكيت لك عنه.. تربينا معا في أريحا منذ طفولتنا.. وهاجرنا إلى عمان معا.. قاتلنا معا.. ثم ها آنذا في بيروت.. وهو هناك في الجنوب.

أضاف:

- أهلا يوســف والله اشــتقنا لك يار جل، كلما سمعت عن هجوم قلقت عليك..

رد عليه مؤنبا:

- لذلك جئت للاطمئنان علينا.. كم مرة وعدت بالزيارة؟

ضربه على ظهره.

- الآن ستشرب قهوة نسائية مضبوطة.

سأله يوسف:

- هل ستتزوج يا أمين؟

- اسـكت وإلا فطنتها على الزواج، أتزوج؟ .. وأين نحيا؟ وكيف؟ كل يوم في بلد.. ثم ها نحن أفضل من الزواج.

سأله يوسف.

- ألم تأت رسائل من أهلي..

- لا، حتى ولا من أهلي.. أنت تعرف ربما يخافون.

جلسـا صـامتين، جاءت هالة تحمل صـينية القهوة والبخار يتصـاعد من "الركوة" قالت:

- أحب أن أصب القهوة كما يفعلون في المقاهي.

قال أمين موجها حديثه لهالة:

- سألني يوسف إن كنا سنتزوج.

انتفضت بانفعال مسرحي:

- وماذا قلت له؟

تلعثم مسرحيا..

قلت له يا عزيزتي:

- إن الاقتران بهالة شرف لا أطمح إليه.

ضحكت خالة هازة جسده، ثم أحنت جذعها وهي تصب القهوة.

نظر يوسف إلى الحقائب المرصوصة على السرير.

- حقائب..؟

قال أمين:

- أنا مسافر، هناك دورة صحفية لبضعة أشهر.

سكتت قليلا ثم أضاف.

- الليلة حوالي الساعة الثانية عشرة ستقلع بنا الطائرة.

ارتشف يوسف فنجان قهوته بسرعة ثم هب واقفا:

- والآن أيها الصديق سأعانقك..

- لماذا؟ ابق معنا، نم هنا، ستعود هالة بعد وداعي في المطار لتنام هنا وفي

الصباح ستغادر وتبقى وحدك.. تتك لي المفتاح عند البواب.

ألح يوسف فتعانقنا، ثم سلم على هالة وخط بضع خطوات حتى الباب، تطلع إلى هالة وقال لها:

– لا تتركيه يفلت منك.. حين يعود اتصلي بالمأذون فورا.

ضحكوا جميعا، ثم اختفى في جوف الأسانسير وهبط.

دخل إلى المطعم الأخضر عند الجامعة، طلب من الفتى الصغير أن يحضر له نبيذا "هناك لا نساء ولا نبيذ" فكر في كتابة رسالة إلى الأهل، ماذا يقول لهم؟ نفس الكلام، أنا بخير، صحتي جيدة، لن يكتب لهم، أنه حزين وأنه يكره الموت والطائرات الإسرائيلية.. وآلاف الأشياء الرديئة، هل أكتب لهم أني بكيت أمس في الفندق؟

أنا الذي أواجه الموت عشرات المرات بكيت من الوحشة في الفندق!. شرب الكأس الأول بسرعة فدب خدر لذيذ في رأسه وبدنه.

كرع كأسا آخر.. ومضغ بعض اللقمات ثم مضغ حبة زيتون أسود، دخل شاب ملتح يتأبط منكبي فتاة متهدلة الشعر طفلية الملاح.

جاء الولد الصغير فسأله:

– ولكن أين والدك أيها الصغير؟

– مات قبل شهر..

- رحمه الله كان رجلا طيبا.. هل تذكرني؟

أومأ الصغير برأسه.

سأله يوسف فاتورة الحساب..

أومأ الصغير باتجاه أمه.

كانت المرأة ترتدي السواد، وتحيك الصوف وراء الكاونتر، راح إليها.. قالت له وأصابعها تعمل في نسيج الصوف.

- تسع ليرات ونصف.

أخذ سيارة إلى ساحة البرج وهناك سمع صراخ عامل الكراج.

- واحد.. واحد بس.. صور، صيدا.. انحشر مع الركاب في المقعد الخلفي فانلطقت السيارة مخلفة ساحة "البرج".

كان يوسف يفكر: لكن ماذا لو سألني الرفاق عن سر عودتي قبل أن تنتهي الإجازة؟.. ربما يدهشون لعودتي السريعة..! ثم أمال رأسه على كتفه وهو يفكر: لا، لن يندهشوا.. سيعرفون، فهم أيضا يعودون قبل أن تنتهي إجازاتهم.

مهر البراري

تأملته المرأة مفتونة. استقبل زوجها ذهولها بفرح. أفلت رسن المهر، راح إليها ومرر يده أمام عينيها، وصاح بفرح:

– وحدي الله يا امرأة:

مدت يدها ومسدت على شعره الأسود اللامع، فانزلقت أصابعها على النعومة النظيفة. لمست جبينه بوله، ورفعت رأسها إلى السماء.

– سبحانك يارب، لا أصدق عيني.

– زوجك سيد الرجال، لا يغلبه أحد، يعرف كيف يلتقط الفرص.

– هه .. ولماذا اشتريته، والله إنه يصلح لأبي زيد الهلالى؟

ضحك الزوج ساخرا من سذاجة امرأته:

– يا امرأة أيام أبو زيد راحت.

أخذت تدور حوله وكأنها تتبرك به، كان ذيله ينساب بين وركيه وقائمتيه، عيناه تتطلعان من فوق الجدران إلى الآفاق والبراري البعيدة:

– إنه مهر.

– مهر. وعربي أصيل.

– من أين اشتريته، وكيف؟

جلس في ظل الجدار، أخذ يتأمل المهر بفرح، ألحت عليه بأسئلتها فسعل وأراح ظهره على الجدار.

– صاحبه الأصلي..

– آ...

– مات..

– آه... والله يبدو أنه كان فارسا..

– دعيك من كان.. وأحاديث الفرسان.. وغيرها يا امرأة.. لا تلتي وتعجني، أخبرن قريب صاحبه، وهو الرجل الذي اشتريت منه هذا المهر.. إنه صاحب المهر..

وكف عن الحديث.. وعاد يتأمل، ثم هب من جلسته واقفا، واقترب من المهر وأخذ يتحسسه.

– إيه.. لكنه قتل، يبدوا أن في المسألة ثأرا، تعرفين البدو..

تفجعت المرأة.

– ياحسرتى..

– اشتريته من الرجل، قريب المغدور بسعر قليل.

– والله يا ابن الحلال ما أظن أن الرواية صحيحة.. ما يدريك أن الذي

باعك الجواد هو قاتل صاحبه. وإلا كيف يبيعك المهر بسعر بخس؟

هنا صهل الجواد، فأمسك الرجل بلجامه وصاح بزوجته:

– ابتعدى، إنه حرون، لقد اقتدته طيل الطريق ولم أتمكن من امتطائه.

قالت المرأة:

– قلت لك إنه لفارس أصيل..

ثم راحت، توارت داخل حوش الدواب وعادت بعد قليل تحمل بين يديها غربالا فيه كمية كبيرة من التبن الأصفر الناعم, وضعته أمام المهر المهتاج، فأهوى بقائمتيه على الغربال فتناثر التبن الناعم وتدحرج الغربال بعدا..

ضحك الرجل، وقال:

– يبدو أن صاحبه لم يكن يطعمه تبنا، ربما رباه على أعشاب البراري الخضراء الريانة بماء السماء، ولكنه أخيرا سيجر النير ويساعدني في الحراثة.

قالت المرأة:

– والله حرام، هذا جواد عربي أصيل.. الحراثة والدراسة تليق بالبغال والكدش.. حرام..

وقبلت جبينه الناصع.

علق الرجل:

- عقل امرأة، أنا يهمني من هذا المهر أن يحرث أرضي.

سألته باندهاش:

- والجواد القديم؟

رد عليها بحزم:

- لقد تركته مريضا في حالة نزع ألم يمت بعد؟

قالت المراة:

- إنه مريض ولكن يمكن أن يشفي.

راح إلى حوش الدواب، أنهض الجواد الهرم على قوائمه المرتعشة الهزيلة، ثم جره من الباب وعبر به أمام المرأة.

إنه جواد منهوك البدن، شعره خشن متسخ.

سألته:

- ولكن إلى أين تأخذه؟

رد عليها بسخرية:

انتهى أمره، لم يعد يستحق الطعام الذي يبتلعه كل يوم..

علقت المرأة:

- ألفناه حتى كأنه منا.

– لذلك سأطلق على رأسه رصاصة الرحمة.

ركض إلى الغرفة حمل بندقيته الصـواري، ثم أخذ يلوح بها أمام عيني الجواد الهرم.

– إيه أيها العجوز، هذا حال الدنيا، لقد كنت مثل هذا المهر ذات يوم، لكن..

عدا المهر قليلا، مد رأسه إلى الجدار لكنه لم يستطع أن يبلغ برأسه نهايته، دار حول نفسه بغضب، ضرب قائمتيه الخلفيتين في الفراغ، حاول الجواد الهرم أن يصهل لكنه أخرج صوتا أقرب إلى الأنين.

علقت المرأة:

– يامسكين راحت عليك.

انتهزها زوجها..

– اذهبي وافتحي البوابة، سنريحه من حياته البائسة.

كانت الشـمس قد أخذت تميل في الأفق الغربي فانتشـرت الظلال وامتدت تحت الأشجار ولصق الجدران والبيوت.

اقتاد الرجل الجواد الهرم، خرج به من البوابة وبندقيته في كتفه.

سار الجواد بخطى بطيئة ثقيلة، وببدن متهدل بارز العظام رخو الجلد، والرجل ينتهر بصوت راعد:

– يللا، انتهت.. لا أحد يدوم، لن تأخذ دورك ودور غيرك.

تجمع الصغار، وساروا وراء الجواد والرجل ضاجين، ضاحكين وكان بعضـــهم يقذف الجواد بالحجارة، انتهرهم الرجل لكنهم لم يبتعدوا توقفوا قليلا ثم لحقوا بالرجل والجواد ضاجين، قاذفين الجواد بالحجار.

ابتعد الرجل والجواد والأطفال عن القرية، تجاوزا البيادر إلى الوادي غربي البســاتين، توقف الرجل، دفع الجواد حتى صــار على حافة الجرف، سدد إلى رأسه وأطلق رصاص واحدة فسقط الجواد في الهوة والدم يشخب من رأسه المفتت المدمى.

عاد الرجل إلى البيت، حدث نفسه: سيظل هذا المهر عنيدا لبضعة أيام، لكني ســأجوعه، بعدئذ أطعمه القمح المجروش المبلل بالماء، ثم أجوعه وأطعمه التبن.. ثم أضــع النير على منكبيه العريضــين وأجعله يجر ســكة الحراثة.

تنب من استغراقه على أصوات الجالسين في ظلال جدران المسجد.

– ولكن من أين جئت به؟

- كيف دبرته..؟
- هل ستكدشه حقا؟
- لمن كان المهر؟

حرك يديه أمامهم، ولم يقل كلام واضحا.. ونفخ صدره وبرم شاربيه بزهو، وإذا وصل البيت قرع البوابة الخشبية بقوة، فأزت أخشابها الثقيلة المتشققة ونادى..

وإذا اتجهت المرأة لتفتح الباب ضرب المهر قائمتيه الأماميتين في الهواء، وأطلق صهيلا حادا غاضبا، وما أن انشقت البوابة حتى انطلق المهر كالبرق ورأسه يكاد يطير في الفضاء، صرخ الرجل بزوجته:

- ابتعدي..

لطت لصق الجدار، حاول الرجل أن يخرج من البوابة لاستباق المهر في الشارع، لكن المهر دفره وطوح به بعيدا، وانطلق عابرا الشوارع والأزقة، وإذ وصل البيادر دار دورة واسعة مخلفا الغبار وراءه، ثم انطلق عابرا البساتين باتجاه البراري البعيدة.

قتلوا الحمام يا عمر

صمت، ليس غير الصمت والوحشية، قطط سائبة وأشجار ساكة، وشمس تموزية شرسة، وبهائم تترنح جوعا وتعبا، وكلاب لا تقوى على النباح، بيوت الطين فارغة والأبواب مشـــرعة، أو مخلعة، ولا أحد.

توقف عمر، تطلع وراءه، حاول أن يرى بيت خاله أبو جواد ليطمئن إلى وجود بشر في هذا الصمت، رأى زاوية البيت.

قالت له أمه وهو يغادر مدرسة مخيم الوحدات بعمان حيث تكدست عشرات الأسر في الغرف:

– لا تذهب. يقتلونك يا عمر، لا تكن عنيدا كوالدك، إخوتك في ألمانيا والسعودية والكويت، ولا أحد غيرك.

خاله أبوجواد رد عليها:

– عمر ليس ولدا إنه رجل، أما والده فيجب أن تفخري به.

قالت الأم بحزن:

– أفخر به.. وماذا ينفع الفخر يا أخي؟ أخذوه إلى السـجن وقالوا فدائي يتسلل عبر الحدود، ثم أخرجوه من السجن وذهبوا به ليدلهم على الطريق المؤدية إلى الوطن، وهاهم يضـيعون بقية الوطن، ويفقدونني زوجي والأمل في كل شيء، إنني لا أعرف أهو حي أم ميت، أسر أم مات.

سمع عمر هدير سيارة قادمة على الشارع الأسفلتي المار بمحاذاة مخيم النويعمة وراء أحد البيت وراقب السيارة إلى أن توارت على الطريق المتجه إلى أريحا مباشرة، انتبه عمر إلى خفقان قلبه وتذك تحذير أمه:

– يقتلونك يا ولدي؟

– لا، إنهم لا يقتلون الأولاد.

– وما أدراك؟ لقد تسـللوا إلى بيادر قريتنا وذبحوا النسـاء والأطفال، ولم يرحموا حتى الحيوانات، نحن نعرفهم، لقد فصـلوا رؤوس الأطفال عن جثتهم، وأغرقوا اعواد القمح بالدم.

خاله أبو جواد قال:

– يا أختي إنه معي فلا تخافي، نحن لن نغامر، إنهم يرسلون دورياتهم قـب جسر المندسة في الصباح وينسحبون قبل غروب الشمس، سنراقبهم،

وعندما تنسحب دورياتهم نتسلل بامان.

أسرع عمر على الطريق الترابي الذي يشق مخيم عين السلطان، وصل إلى مداس البنين على كتف الوادى، أدار وجهه في كل الاتجاهات، جبل التجربة الهائل يحتضن الكنائس في صخوره الصلدة.

تساءل عمر: من يصدق أن هذه المخيمات كانت تغص بالنساء والرجال، والأولاد، إن هذه المدارس كانت تمتلئ بالتلاميذ، والطلاب، والتلميذات.. وأن نداءات البائعين الجوالين ما كانت تهدأ؟

تذكر عمر كلام أمه (انتظرنا أن نعود إلى قرانا التي ضاعت في الـ٤٨، وها نحن نفقد كل فلسطين في الـ٦٧) نكب الله الذين كن السبب.

وهو يتطلع إلى مخيم النويعمة حيث بيتهم تذك عمر كلمات خاله أبو جواد:

– عندما تصل إلى المدارس راقب الطريق، ثم اهبط إلى الواد بسرعة ولا تدخل مخيمكم عن طريق الإسفلت، وتحاشى مخفر الشرطة، لأن إحدى الدوريات "الإسرائيلية" تكمن هناك أحيانا، لا تتأخر. عند العصر سنغادر كي نبلغ نهر الأردن، في أول الليل، مع رحيل الدوريات.

رآهم يتحركون على سطح قمة الجبل المنبس المشرف على المخيم.

خفق قلبه، وود لو إنه لم يغامر، لكنه يحب الحمام، منذ سنين وهو يربي الحمام، يحضر له الأقفاص، يبني له الأعشاش، يعلفه على راحة يده وأحيان من فمه.

والده أحضر له أجمل فراخ الحمام، أما أمه فيئست منه، لأنها ألف مرة قالت له: "ياولدي، ولماذا الحمام مادمت لا تأكله؟"، وهو لم يمل من ترديد جملته التي لم تتغير: الحمام يفرحني، آه لو لي أجنحة مثله، وأمه كانت تسأله أحيانا "ولماذا الأجنحة ياولدي؟" وعمر يقول لها: لأرى قريتنا، لأسلم على قبر جدى، وأمه تقول له مناكفة: قريتنا هدوها ياولدي، فيقول عمر: أرى بقايا القرية، أرى أين كانت.

غسل وجهه وعنقه، وشرب من ماء الجدول حتى ارتوى ثم زحف على يديه وقدميه حتى بلغ طرف المخيم. رأى سيارة بجار مكتب مدير المخيم فتذكر أن المدير لم يغادر، وأنه ظل يداوم في عمله، وأن المحتلين لم يمنعوه من الاستمرار في عمله لأنه تابع لوكالة الغوث.

بلغ بيتهم، البوابة مفتوحة، وثمة جسد رجل ميت مدد على العتبة تفوح منه رائحة ثقيلة، وقد تجمد الدم على ظهره، وهو منكفئ على

وجهه، وقد سقط إلى جواره لحاف تشبث يده اليمنى به، أشاح عمر ، وتخطى جثة الرجل، رأى في ساحة البيت عشرات طيور الحمام والأفراح وقد ثقبها الرصاص، والدم تجمد على ريشها الزاهي، حملق عمر مدهوشا وقد ارتخى فكه، واتسعت عيناه. انحنى ببطء على الأرض، وأخذ يقلب الطيور القتيلة المتيبسة بذهول، كاد يطلق صرخة رهيبة، لكنه حبس صرخته في داخله، وإن لم يستطع حبس دموعه الغزيرة، أخذ يتمتم كالمأخوذ: يا طيوري، ياحبيباتي، يا أهلي.

تنبه عمر على إطلاق رصاص غزير، نصب قامته ، ورفع رأسه فرأى بعض طيور الحمام تحلق مذعورة.

ساد الصمت، رأى عمر الوحشة والموت، اختنق صدره بالرائح الثقيلة، أطلق عمر صفيرا حادا عاليا، لوح للطيور التي أخذت ترفرف مقتربة من فضاء البيت، هابطة ببطء وحذر، صعد عمر إلى السطح كما كان يفعل أيام زمان، وجد العصا الطويلة وفي طفها قطعة القماش فأخذ يلوح لطيوره.

أمه حذرته:

– يقتلونك ياولدي.

ولكنه عنيد كوالده

قال لها:

– لا، أنا ولد صغير، ولا أحمل سلاحا فلماذا يقتلونني؟ أنا عائـد لأنقـذ طيوري إذن لماذا يقتلونني؟

انطلق رصاص غزير حاول عمر أن يحذر الحمام، صرخ:

– ابتعد أيها الحمام، اختبئ.

لكن الرصاص تواصل، فترنح جسد عمر، وسقط على ظهره مفتوح العينين، رأى السماء تمطر دما، تمطر أفراح حمام ثقبها الرصاص.

تمتم:

– أنا ولد صغير، فلماذا يقتلونني، عدت لأنقذ طيوري..

أمال رأسه:

– قتلوا الحمام ياخالي أبو جواد.

وإذ سـكن جسـد عمر كان كفرخ حمام يفرد جناحيه، ويهوي على وجهه وهو ينزف دما، وجناحاه يرتعشان.

ساد الصمت، وظلت السماء رمادية فارغة موحشة.

رحلتي مع القصة القصيرة

رشاد أبو شاور[1]

ذلك اليوم البعيد من عام ١٩٦٤ مازال في البال، كنا معا عصبة، تجمعها الحماسة للقراءة والكتابة، والأحلام الفسيحة، الندية في مطلع الصبا، وما يضج في العروق، والصدورن والعقول، من حرارة دم، وجيشان عواطف، وصخب أفكار.

في ذلك اليوم البعيد البعيد، كتبت قصة قصيرة بعنوان "الليل"، وعرضتها على أصدقائي، الذين باركوها، وأقروا بوقار مبكر، كما لو أنهم محفل يصدر أحكاما لا ترد، بأن "الليل" قصة قصيرة فعلا.

كنا معا في مخيم "اليرموك" القريب من دمشق العريقة نقضي جل وقتنا إما في "جوير" – الضيعة القريبة جدا من دمشق، والتي صارت فيما بعد، حيا من أحيائها – أو في "مخيم اليرموك".

كنا نجمع من بعضنا ما تيسر من "فرنكات" – وحدات العملة السورية آنذاك– لشراء ديوان شعر، أو رواية مترجمة، أو عمل أدبي لمبدع عربي.

مجلة "الآداب" شدتنا إليها منذ وقت مبكر، فأدمنا قراءتها، وانتظرنا أعدادها بلهفة، وتابعنا ما تنشر من قصص قصيرة، ومن شعر "حديث"، أو شعر تفعلية، شعر القصيدة لا البيت كما بشر المجددون من الرود، نازك، السياب، أدونيس، خليل حاوي، والحيدري، وبعدهم بقليل، من السنوات، عبد الصبور، والفيتوري، وأحمد حجازي، وأسماء أخرى.

بعد عودتي مع أسرتي من دمشق إلى "أريحا" عام ٦٥، نشرت قصتين قصيرتين في صحيفة "الجهاد" الفلسطينية، التي كانت تصدر في القدس، عام ٦٦، هما "أحذية الآخرين" والتي خطرت لي فكرتها وأنا اتسكع في شوارع عمان القديمة، وقصة "اليل" التي كنت قد كتبتها في مخيم اليرموك، قبل سنتين.

قصتي القصيرة الأولى نشرت على صفحات "الآداب" بد حزيران عام ٦٧، وكانت قصة احتفائية بالفدائي الفلسطيني، المقاومة، التي رأيت– وما زالت– أنها سبيلنا للرد على الهزائم العربية، هزائم النظام العربي، تلك القصة عنوانها "أشياء فلسطينية".

مجموعتي القصصية الأولى صدرت عام ١٩٧٠ عن دار الطليعة في بيروت، بعنوان "ذكرى الأيام الماضية"، وبغلاف هدية من الفنان الفلسطيني فاروق أبو هويدي، والذي لم يشر إلى اسمه، رغم أنني ثبت اسمه

في الصفحة الثالثة، ومازلت حتى اليوم أشعر بالأسف لسقوط اسم ذلك الفنان المدهش الذي وصفه لنا فنانا الكبير الكبير مصطفي الحلاج بأنه أعظم تجريدي فلسطيني..

سبع مجموعات قصصية نشرت لي حتى يومنا هذا – وثمة مجموعة جاهزة – تقصدت دائما أن تكون كل واحدة منها في حدود المائة صفحة، يجمعها نبض واحد، وهاجس، وتضيف شيئا لما سبقها.

لا أريد أن أنظر لفن القصة القصيرة، لا نصائح مهمة عندي بعد رحلتي الطويلة مع القصة القصيرة، فالكتابة الإبداعية، لا تصقلها نصائح الأخرى، أو الكتب المدرسية التي تستفيض في وضع الشروط والقواعد، كما لو أن الكتابة تنطبق عليها وصفات كتب الطبخ التي تحدد المقادير، ودرجة الحرارة، وأنواع الأطباق التي يسكب فيها الطهاة، وسيدات البيوت ما أعد من طعام.

يمكنني القول: إني قرأت كثيرا، ولكنني بدأت القراءة متأخر نسبيا، ولذلك أسباب، أهمها أني عشت في مخيمي "الدهيشة" قرب بيت لحم، في الخيام مع والدى، وأقاربى– أمي زينب ماتت ودفنت في قريتنا ذكرين، وأختي معزوة ماتت بعدها بشهر ونصف، في العام ٤٦، ولذا تكونت

عائلتي مني ومن أبي، الذي تزوج عام ٥٦، وأنجب أربعة أخوة، وخمس أخوات، حتى العام ٥٢، و"النويعمة" قرب أريحا حتى لجوء أبي سياسيا إلى سورية في العام ٥٧- في شروط لا تسمح لنا بغير التفكير برغيف الخبز، وبضع حبات من التمر نلتهمها بشراهة، نحن الجوعى المقروري الأجسد دائما.

لم نقرأ مجلات "تان تان" و"سمير" و.. قد تأخر دخول "الراديو" إلى حياتنا، وظل وقفا على المقاهي، وفيما بعد على أسر قليلة ميسورة.

في دمشق ترددت على دور السينما، وهي تختلف عن القعود على الأرض العارية إلا من النتوءات والحصى الغليظ، أمام حائط المدرسة للتفرج، مع أهال مخيمنا على فيلم عربي، يعرض لنا في فترات متباعدة، في العراء، ووسط حالة من الضجيج والفوضى التي يحدثها الصغار، والكبار مندهشين أكثر من الأطفال مما يرونه أمامهم، وخاصة عندما يقبل بطل الفيلم بطلة الفيلم، فترتفع التعليقات: اخس، استغفر الله العظيم، ياعيب الشوم.

الكتاب، السـينما، الراديو، حلقات النقاش، الآماسـي الشـعرية، والندوات الفكرية، والمعارض التشـكيلية، والصـحف، والمجلات "الآداب المسرح، المجلة، القصة" هذا هو عالمنا آنذاك.. فقط؟

لا، لأن فلســطين ملأت أفكارنا، ووجداننا، وقادتنا لليقين بأنه لا أمل بتحريرها إلا بالوحدة العربية، وبنهوض الأمة، ويقظتها.

اسمحوا لي أن أذكركم بأن من يتحدث إليك الآن هو كاتب عربي فلســطيني، فهو ينتســب لأمة بعينها، ولجزء منها محتل، بعض أهله تحت الاحتلال، وفي المنافى، وأنا واحد ممن يكتبون، ويرسمون ويبدعون موسيقيا.. إلخ.

مع نمو وعينا، ومعرفتنا، افترقنا، فنا، وفكرا، ونهج حياة، لا أقصـد نحن فقط نحن تلك العصـبة في دمشـق من الفلسـطينيين، الذين كبروا في الشتات، ولكنني أشير هنا إلى أبناء وبنات جيلي من المبدعين الفلسطينيين المنتشرين في أمكنة متابعدة.

هل كان لنا أساتذة؟

نعم، كانت سميرة عزام، وغشـــان كنفانى، وفيما بعد جبرا إبراهيم جبرا، وأنا هنا أتوقف عند القصاصين والروائيين الأحياء آنذاك– والذين

ســيبقون أحياء عند شــعبهم، وأمتهم، بما قدموا من الإبداع– ولا أنسى من سيقوا، قبل نكبة ٤٨، نجاتي صدقى، خليل بيدسن محمود سيف الدين الإيراني مؤسـس مجلة "الفجر" القصـصية عام ٣٥، والتي شـاركه في تحريرها القاص عارف العزونى، كما لا أنسـى شـعراء فلسـطين الكبار الذين ألهمونا، وملأوا نفوسـنا بالحنين، والحماسـة، والغضـب، وزورعوا فلسـطين بأشجارها، وبحرها، ومدنا، وقراها، وثوراتها في وعينا، ولكن ألا ننتمي لأمة، نكتب بلغتها، ونعيش كل ما يلم بها، وتهدر في عروقنا دماؤها، وثقافتنا جزء من ثقافتها، وإبداعنا بعض إبداعها؟

الأمر كذلك ولذا فقد قرأنا يحيى حقي، ويوســـق إدريس، ونجيب محفوظ– أنا هنا أتحدث عن تجربتي القصــصـية، لا الوائية، وأرى أن نجيب محفوظ قاص كبير، وليس روائيا كبيرا حسب– وسهيل إدريس، وسعيد تقي الدين، وفؤاد الشايب، وزكريا تامر، ويوسف الشاورني، وغيرهم.

أبناء جيلي اهتموا كثيرا بالاطلاع على القصـــة القصـــيرة في العالم، منهم من قرأها بلغة يتقنها، ومنهم من قرأها مترجمة.

شــخصــيا توقفت عند "تشــخوف"، و"**O,henney**"و"همنغواى"، و"موبسا"، وهم ينتمون لثقافات، وأمم ولغات مختلفة.

لم أقصـــد أن أكتب مثل واحد منهم، ولم اغلق عقلي على مفاهيم ثابتة، فنحن نعيش في عصـــر مختلف، وننتمي لأمة لها همومها، وأســـئلة جودها تلح عليها، وقضيتنا الفلسينية، ليس لها مثيل في التاريخ الإنساني المعروف: شـعب تحتل أرضــه بالقوة، والبغي، ويحل محله أناس يجلبون من أرجاء العالم بحجة أن ربهم وعدهم بهذه الأرض: فلسطين! الالتزام!

مادمت فلســطينيا فمن الطبيعي أن أرفض ما حدث لشـــعبي الفلسطيني، ومن البديهي أن أتأمل واقع حال أمتي، وأستنتج العبر، وأبلور قناعات، ستنعكس بالتأكيد على مسار حياتي، انتماء، وممارسة، وكتابة.

فلسـطين حاضـرة في كل ما كتبت، ولكن ما هي فلسـطين هذه في القصـــة، والرواية، والمســـرحية، والمقالة الأدبية، والخاطرة التي كتبتها، وأكتبها؟

إذا كانت تحتاج لشـــرح، وتوضـيح، بعد خمســة وثلاثين ســنة من الكتابة والنشـــر، فمعنى هذا أن خللا قد وقع إما في "الإرســـال" أو في "الاستقبال".

ولكن لعل السؤال غير مطروح إلا عند بعض المتسرعين من القراء، والنقاد، وكتاب المراجعات في الصحف والمجلات، الذين يرتاحون للسهولة، والأحكام الجاهزة.

أود أن أنفذ إلى فكرتي مختصرا للكثير من الكلام، والذي لا شكوى فيه، باستعارة الفقرة الآلية من رسالة بعث بها "تشيخوف" لكاتب روسي معاصر له، هو "تيخونوف": سيسموننا كلتا كتاب سنوات الثمانينات، أو نهاية القرن التاسع عشر, أي أننا نعتبر بشكل أو آخر جمعية تعاونية، ولن يكون هناك تشيخوف، أو تيخونوف، أو شيغلوف، أو بيزنسكي.

كاتب فلسطيني!

قصة فلسطينة!

هل النسبة للإقليم الذي ينتمي له الكاتب تحدد موضوعه، وقيمة ما يكتب؟

أليست لنا خصوصياتنا الأدبية، الفكرية، والتقنية؟

ومع ذلك فإن "نقاد" المسار السهل، يجعلون القصاصين والروائيين والشعراء الفلسطينيين جميعا حزمة واحدة، لا خصوصية لواحد، ولا تباين زمني، أو مكاني، أو سياسي، أو فلسفي، بين واحد وآخر.

منذ البداية أيقنت أن "الموضوع" الفلسطيني لا يجعلني كاتبا، ولكن الكتابة يمكن أن تجعلني كاتبا عربيا فلسطينيا..

فلسطين ليست موضوعا واحدا مغلقا، يستدر الشفقة، أو يفجر الغضب، فلسطين حرب، ومنافى، وخوف، وسجون، واستشهاد، وحب- ألا يحب الفلسطيني، حتى وهو في الخيام، أو السدن، أو تحت الاحتلال؟- وبطولة، وجبن، وإقدام، وتقاعس، ورفض للهزيمة، وقبول بها وتنظير لها.

ثم: هل الفلسيني معزول عن فضائه القومى؟ ألم يكتب جبرا روايات رائعة مستوحاة من "العراق الذي عاش فيه، وعمل، وأحب، وتزوج وأنجب؟

لا أرى أن أستفيض وأطنب في الحديث عن الكتابة الفلسطينية، الروائية، والقصصية، التي أبدعها الفلسطينيون، عن تجاربهم في وطنهم العربي الكبير.

بالمقابل نرى أن عددا من المبدعين العرب، قصاصين، وروائيين، قد كتبوا عن فلسطين، ومأساة شعبها، منهم الدكتور جورج حنا اللبنانى، صاحب رواية "لاجئة" المنشورة في الخمسينات، وفتحي غانم الروائي المصري الكبير الذي كتب "أحمد وداود"، وإلياس خوري اللبناني الذي كتب "باب الشمس"، وناديا خست، صاحبة "الحب في بلا الشام"، وخير الذهبي في "حسيبة"، ومطاوع صفدي "جبل القدر"، وأديب نحوي "عرس فلسطيني"، وعشرات الروايات لمبدعين من أقطار عربية، ناهيك عن مئات

القصص القصيرة، عشرات الأعمال المسرحية، وألوف القصائد.

هنا أتوقف قليلا عند إنجازات أبناء جيلى، الذين لا يمكن جمعهم بصفة واحدة، زمنية "جيل حزيران"، فأنوه بما حققوه مع غيرهم من المبدعين العرب.

ربما يجمعنا أننا تخلصنا في قصصنا من السرد الثقيل الذي ما عاد يتناسب مع روح زمننا، بما يميزه من سرعة إيقاع، ومتغيرات، منجزات تقنية.

شخصيا لجأت للتقطيع في قصصي المبكرة، وحشد عدد من اللقطات السريعة لبلوغ التأثير النفسي لدي الملتقى، ولتقديم الإنسان الفلسطيني في لحظة الاشتباك بالسلاح، والصراع العنيف مع عدو استباح كل شيء، وما عاد يجدي معه سوى الصراع، صراع الوجود، والكرامة، والحرية.

تنبهت وأنا أتردد على قواعد الفدائيين، إن التفاصيل الحسية شديدة الأهمية إذا ما وظفت في القصة، وهذا ما فعلته معتمدا على المعايشة الحسية عن كثب، لا بالتخيل، أو الإسقاطات الجافة عن بعد.

استنتاجى: الكتابة تحتاج للمعايشة.

التجديد يتحقق بالثقافة، والتجربة، والممارسة كتابة وحياة.. يحرجني أن أتحدث عن قصصي، وكأنني أستدر الإعجاب بعيدا عن النصوص التي كتبتها طيلة ثلاثة عقود ونصف، ولذا أمشي بسرعة، ولا أتوقف مطولا، لثقتي بالقارئ العربي الجاد، والأكثر صدقية من نقاد محترفين، غالبا.

يبدو لي أن بعض من يكتبون، ويكتبن، القصة القصيرة، يظنون أنها سهلة، لأنها قصيرة، يمكن كتابتها في صفحتين، ثلاث، وفي جلسة واحد تزيد أو تقل، قليلا، عن ساعة واحدة، هكذا تكون القصة القصيرة فنا مريحا، وسهلا، يوصل للشهرة بسرعة، لا يحتاج للتخطيط، أو التأمل، والقراءة الجادة، والإطلاع الدائب، والموهبة، وهل ننسى الموهبة؟ مع أنني شخصيا، وبعد كل سنوات الكتابة لا أعرف ما هي الموهبة، ولكن أليس للموهبة علاقة بالرغبة في القراءة، والمواظبة عليها؟ بقوة الملاحظة؟ بالرغبة الملحة في الكتابة؟ بالتأكيد لها، ولكنها أوسع وأعمق، وغموضها لا يكشف عن أسراره سوى بالكتابة، والكتابة بمستوى.

الكتابة لها علاقة وطيدة بالتواضع، وعدم الادعاء، وحسن الإصغاء، و"التصوف" وأقصد الترفع عن الانغماس في متع الحياة التي تشغل، وتنهك، وتستنفذ طاقات المبدع.

كتب تشـــيخوف رســـالة عبر فيها عن رايه في الفن، جاء فيهاك عنـدمـا يكلمونني عن الروح الفنيـة واللافنيـة، عن النزعـات والاتجـاهـات والواقعية وما شـــاكل ذلك فإني أرتبك، وأتخبط، وتكون إجاباتي تافهة لا تستحق حتى قرشـا نحاسيا، إني أقسم كل النتاجات إلى قسـمين: هذه التي تعجبنى، وتلـك التي لا تعجبنى، ولا يوجد عندي مقياس آخر، ربمـا بمرور الوقت أصبح أكثر ذكاء، وأكتسب خبرة، وعندئذ سأستطيع الإجابة.

قرأت ما تيســـر لي من الكتب عن فن القصـــة القصـــيرة، فزادتني قراءتها ارتباكا، وعســـر فهم، بفن القصـــة القصـــيرة، ودفعت بي أحيانا إلى وهاد اليأس من إمكانية أن أكتب قصصا يرضي عنها مؤلفو تلك الكتب.

وقرأت تعريفـات لاحصـــر لهـا– من نعم الله على أنني أنســـى التعريفات، ولا اتوقف عند الأحكام، والقوانين الصـارمة في الفن– للقصـة القصيرة، نسيتها جميعا.

قوانين العلم الصارمة لا تنطبق على الفني، ولذا فإن القصة القصيرة فن بلا حدود، فقد تعجبنا قصـــة محكمة الحبكة، وقصـــة حديثة جدا لا حبكة فيها، ولا ذروة، ولا حل، كما يمكن أن لا تعجبنا كثير من القصــص التي تدعى "الحداثة" و"التجديد" و"التجريب"، وتحتفظ ذائقتنا بقصة

ليحيى حقي، لأنه أكثر حداثة، ومعرفة بالحياة، وإمتاعا ومؤانسة.

تكتب "هالي بيرنت" القاصـــة والناقدة الأمريكية، في مدخل كتابها "كتابة القصـة القصـيرة": للقصـة القصـير وجود كثيرة، وأشـكال متعددة، مثل كل شـيء إنسـاني، وهي أو وأكثر الأنواع الأدبية طبيعية واسـتمرارا، كما أنها جذابة فلابد أن يصـغي إليه شـخص ما، فالقصـة الجيدة تختزل في داخلها جوهر الدراما والخبرة الإنسـانية عامة، ولأنها قصـيرة، وفي الصـميم فقد تكز على لحظة، أو سنة، أو حياة كاملة.

أما الصـديق الروائي، القاص، المترجم الفلسـطيني المقيم في القاهرة، أحمد عمر شاهين، فقد برر ترجمته لكتاب الأمريكية "هالي بيرنت" بما يلى: يبدو أنه أصبح ضروريا بين حين وآخر التأكيد على البديهيات، خاصة في مجال الإبداع الأدبي، فلكل مهنة أصــول وقواعد، ولا يمكن ممارســتها إلا بعد درس واجتهاد، ومعرفة البدايات صعودا إلى الوقت الحاضر، وإلا هل يتخيل أحد أن من الممكن إبداع الكمبيوتر دون معرفة ســابقة بالأســس العلمية التي قام عليها؟ لكن في الأدب– خاصـة القصـة والرواية والنقد– يبدو من السـهل أن يقتحم كائن من كان هذا المجال لمجرد أن يقال عنه: إنه كاتب، دون أن يعطي هذه المهنة حقها من الجهد والعمل.

الجهد والعمل!.. هذا ما أظن، أنني نهجته في رحلتي الكتابية، قصة قصيرة، ورواية، وكتابة صحفية، وما فعلت ليس فضيلة، أو ميزة شخصية، ولكنها شـــروط يتوجب أن "ينفذها" كل من يرغب في الســـير على طريق الإبداع.

و"ديمقراطية" فن القصـــة، وســـهولة عبور ملكوتها، لم تكن لتغري باقتحام عالمها لو لم أكن مقتنعا بقدرة القصــة القصــييرة على نقل "دراما" حياة، وتحولات مجتمعنا .

ما من شك أنني أنتمي لجيل جاد من كتاب القصة القصيرة العرب.

جيل لكل واجد من مبدعيه ملامحه، وسماته– من الذين واصلوا، ولم يتعثروا، ويغادروا المســيرة الشـاقة على طريق لا نهاية له، الســير عيه ممتع، ومعذب، ومتطلب– التي تميزه، وتجعل من قصــصــه إضــافة لفن القصــة القصيرة العربية.

لم تبعدني الرواية عن القصة القصيرة، ولا سرقتني الصحافة– التي تعاملت معها كهاو، رغم طول العشـــرة معها– وهكذا، كما قلت، كتبت القصة القصيرة، والرواية، والمقالة الصحفية.

كتاب عرب مشهود لهم قنعوا بهذا الفن النبيل، الصعب، وشيدوا عالما قصصيا أثر على إبداعنا العربي القصصي، زكريا تامر، يوسف الشاورنى، سميرة عزام، وأكاد أقول: يوسف إدريس، ويحيى حقى، مع أنهما كتبا روايات، لكن القصة ظلت هي أساس إبداعهما، بل إننا نراها حاضرة في فنهما الروائى.

في خضم حياة عربية مضطرمة موارة، ولدنا، ونشأنا، وترعرعنا، على اسم فلسطين، ونداءات الوحدة العربية، وثورة ٢٣ يوليو تموز، وخطابات جمال عبد الناصر التعبوية، المحفزة، وصوت العرب، ومعركة القناة، وبور سعيد، وثورة الجزائر، والعراق، ووحدة مصر وسورية، ومؤامرة الانفصال عما ٦١، التي أسهمت فيها اطراف معادية، محلية وعالمية، وثورة اليمن بقيادة عبدالله السلال، وإرسال مصر الناصرية قواتها لحماية الثورة اليمنية، والاشتباك في حرب ضروس مع السعودية وقوات المرتزقة بقيادة الإمام بدر.

لم نكن معزولين عما يحدث لأمتنا، بل كنا في الخضم، نطرح على أنفسنا الاسئلة، ونفتش عن إجابات، وننشغل بهموم الناس من حولنا..

وبعدئذ وقعت علينا كارثة حزيران.

كل ما تقدم أثر على مسيرتنا القصصية، أفرادا مبدعين، وكجيل ينتشر في الوطن العربي الكبير.

عندما اخترت الكتابة مهنة، قلت: هذا طريقي! لم يأمرني احد، ولا وجهني أحد، ولذا أنا راض بهذا الاختيار، وفخور به- دون تواضع مفتعل- ولا أرى أنه يجعلني أفضل من غيري، ولكنه يقربني من الآخرين، ويجعلني نافعا، ويعطي لحياتي معنى.

نحن الآن في زمن غير الزمن الذي ابتدأ جيلنا فيه رحلة الكتابة..

ظروف أمتنا تختلف.

فلسين ابتعدت، مع التذكير بأن فجرها يمكن أن يقترب.. إذا ..

الوحدة العربية يشككنا فيها النظام العربي الإقليمي.

أوروبا، وهي أمم، تتحد.

المنجزات التقنية تقفز قفزات هائلة.

انظروا ما تفعله "الإنترنت"، والهاتف النقال العالمي، وسيل المعلومات الذي يصل على شاشة "الخلوي"، حيثما كنت، في الشارع، في السيارة، في الخلاء، في الطائرة، في البحر.

عل سبيل المثال نحن نرى الكثير مما يحدث لأهلنا في فلسطين، من قصف صاروخي من طائرات الهليوكبتر، ورشاشات الدبابات، ونيران جنود

مدججين بالسـلاح يواجههم فتية بالحجارة.. أي بالسـلاح البدائي، في زمن التكنولوجيا، بينما السلاح إلى تشتريه دول عربية نفطية مكدس في المخازن، والمســتودعات.. إلى حين تحتاجه القوات الأمريكية التي تحتل بلدان الخليج، وتهيمن على كثير من الأقطار العربية سـياسـيا وعسـكريا، واقتصاديا.

هل يتساءل أحد: ما علاقة هذا بالقصة القصيرة؟

كتاب القصة القصيرة، والرواية، والشعراء، والفنانون التشكيليون، والموسـيقيون.. في العراق، لا يجدون الورق، ولا الأقلام، بـل ويبيعون مكتباتهم، ومسجلاتهم، وأدوات بيوتهم الكهربائية.

يحدث هذا في زمن التطور التكنولوجي، والثورة المعلوماتية، والحصـار الأمريكي للعراق!

كتاب القصة القصيرة في فلسطين، والروائيون، والشعراء والفنانون.. يعيشـون مع أهلنـا في زمن الاسـتفراد الصـهيوني الأمريكي بالعربي الفلسـطيني، حتى أن الذبح يتم علنا، تنقله فضـائيات العالمية، والعربية.. والأمة تستجيب بالنزول إلى الشوارع، مهيبة بـ"قادتها" أن يفعلوا شيئا.

ولكنه العجز!

الإبـداع لا يتم في فراغ! الإبـداع هو ابن الواقع، وحقـائق الحيـاة، يكتب بلغة قوم بعينهم، ومخاطبا وعيهم ولا وعيهم.

من يثرثرون كثيرا عن "الحداثة" والتجريب لم يتفوقوا على من سـبقهم من المبدعين العرب، وأخال أنهم نجحوا في أمر واحد فقط: أن يكون خارج عصرهم.

ثم أعود إلى القصـة القصـيرة فأقول: بأنها ليسـت فن الكسـالى، والمتسرعين، وهوات الشهرة الميسورة في صحافة غير جادة همها أن تسود مسـاحات بين إعلان وإعلان، أو مقالة تافهة لا تقول شـيئا ومقالة تافهة أخرى تنافسـها، القصـة القصـيرة فن العزف على آلة واحدة، واسـتخراج أنغام تنبع من الأعماق وتذهب لأعماق إنسـانية، فتنشـئ صـلة، وتبعث أملا، وتقوي عزيمة، وترتقي بالإنسـان حتى لا يغرق في "عزلته" وحيدا بلا أمل.

وصفت القصة بأنها الصوت المنفرد، وأنها صوت الإنسان الوحيد، فمن يستخرج الصوت من البكم، ومن يخترق الوحدة الموحشة غير الفنان المجهز بأدوات الغوص، والحفر، والتنقيب؟

من "الخرافية" والحكاية، والأغنية الشعبية، والموال، والعتابا، والدبكة، والسامر، وروح القص العربي استفدت، ووظفت هذه الفائدة في قصصي ، تضمينا سافرا ومضمرا.

بالقصة القصيرة قلت الكثير، فالقصة القصيرة وصفتها أنها قصثيرة، أما فعلها فقد يكون دائما وطويل الأمد.

سبع مجموعات قصصية نشرت لي حتى الآن، والمجموعة الثامنة تصدر قريبا، في رحلتي الممتدة مع القصة القصيرة، اتبعت في كتابتها أساليب، وتقنيات مختلفة.

ثم، ماذا بعد؟

سأكتب قصصا قصيرة بين وقت وآخر، ولكن أحسب أنني لن أكتب بنفس غزارة السنوات الأولى، ولهذا أسباب شتى.

ولكنني سأبقى دائما من قراء القصة القصيرة المتحمسين، فالقصة القصيرة متعة فنية وعقلية، متعتها متجددة، وهي تروي وتستعاد بسهولة، وفيها حكمة لا تزول مع تقدم الزمن.

الهوامش

١– رشاد أبو شاور من مواليد قرية ذكرين – فلسطين عام ١٩٤٢، أصدر عددا كبيرا من الأعمال الرواءئية من بينها: أيام الحب والموت، البكاء على صدر الحبيب، العشاق، شبابيك زينب، الرب لم يسترح في اليوم السابع، أرض العسل، ومن مجموعاته القصصية: ذكرى الأيام الماضية، بيت أخضر ذو سقف قرميدى، الأشجار لا تنمو على الدفاتر، مهر البرارى، بيتزا من أجل ذكري مريم، حكاي الناس والحجارة، الضحك في آخر الليل، ومن كتبه : ثورة في عصر القرود، آه يابيروت، مسرحية، الغريب والسلطان، عطر الياسمين، أحلام الحصان الأبيض، ترجم عددا من أعماله القصصية الروائية، ومنح عددا من الجوائز من بينها: وسام المنظمة العالمية للصحفيين تقديرا لدوره في معركة بيروت، ولكتابه "آه يابيروت"، كما محته رابطة الكتاب الأردنيين جائزة "محمود سيف الدين الإيراني" للقصة القصيرة.

الفهرس